الكتاب الجميل
١٧٦
السفير

ABU ABDO ALBAGL

دوستويفسكي

الوديعة

قصة خيالية

ترجمة: غائب طعمة فرمان

للإعلام والثقافة والفنون

ك ٥٦٥ ٢

الكتاب للجميع

دوستويفسكي

الوديعة

قصة خيالية

ترجمة : غائب طعمة فرمان

طبعة خاصة
توزع مجانا مع جريدة (السفير)

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
٢٠١٦

مجاناً مع جريدة السفير
تصدر عن شركة السفير ش.م.ل.

■ السفير

رئيس تحريرها: طلال سلمان
المدير العام: احمد طلال سلمان
المدير المسؤول: غاصب المختار

الكتاب للجميع

■

التحرير والإدارة: شارع منيمنة / الحمراء/ بيروت
فاكس ٠١٣٥٠٠٠٥ - ٠١٧٤٣٦٠١
ص.ب: ١١٣/٥٠١٥/الحمرا - بيروت ١١٠٣٢٠١٠
انترنت http: //www.assafir.com
Coordinator@assafir.com

- تمّت الطباعة في مطابع جريدة السفير
- تلفاكس ٩٦١-١٧٤٣٦٠١/٢/٣/٤+

سلسلة شعبية تعيد إصدارها

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة والتحرير

فخري كريم

بيروت - الحمراء - شارع ليون - بناية منصور
الطابق الأول - تلفاكس: 752616 - 752617
www.daralmada.com Email: info@daralmada.com

سورية - دمشق ص.ب.: 8272 أو 7266 - تلفون:
2322275 - 2322276 - فاكس: 2322289
Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O. Box: 8272 or 7366.
Tel: 2322275 - 2322276 - Fax: 2322289
بغداد - أبو نواس - محلة 102 - زقاق 13 - بناء 141
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

من المؤلف

أرجـو المعذرة من قرائي على أني أقدم، في هذه المرة، قصة خالصة، بدلاً من «اليوميات»[1] بشـكلها المعتاد، لأنني، في الواقع، انشغلت بهذه القصة معظم الشهر. وعلى أية حال، أرجو لطف القراء.

والآن عـن القصة ذاتها. لقد وضعت لها عنوان «قصة خيالية»، مع أنني أعتبرهـا حقيقية إلى حد كبير، ولكنها، في حقيقة الحال، تشتمل على ما هو خيالي أيضاً، وفي شكلها بالذات، مما يلزمني الإيضاح مسبقاً.

والواقع أنهـا ليست قصة، ولا مذكرات. تمثلوا زوجـاً ترقد على طاولة في بيته زوجته المنتحرة التي ألقت نفسها من النافذة قبل بضع ساعات. فهو في بلبلـة، لم يستطع بعد أن يجمع أفكاره. إنه يسير في الحجرات، ويحاول أن ينفـذ بفكـره إلى ما حـدث، أن «يركز ذهنه». فضلاً عـن ذلك فإن هذا الموسوس المزمن هـو من الذين يتكلمون مع أنفسهـم. وهو الآن يتكلم مع نفسـه، ويروي القضيـة، ويوضحها لنفسه. إنه، رغـم كلامه المتماسك في الظاهـر يناقض نفسه عدة مـرات سواء في المنطـق أو في المشاعر. فهو يبرر نفسـه تـارة، ويتهمها أخـرى، وينهمـك في إيضاحات جانبيـة. وهنا نجد

---

١. يقصد بها " يوميات كاتب" التي كان ينشرها شهرياً في مجلة "غراجدانين"، ابتداء من عام ١٨٧٣. وكان يستخدم فيها الأسلوب "الإشهارى" بشكل عام، ما عدا بعض الأعمال الفنية من صور قلمية، وقصص، وذكريات، ومنها هذه القصة والقصة الأخرى" حلم رجل مضحك" المنشورة في هذه المجموعة. الناشر.

فظاظة الفكر والقلب، وهنا نجد الشعور العميق أيضاً. وشيئاً فشيئاً يوضح القضية لنفسه بالفعل و«يركز ذهنه». وتقضي به جملة من الذكريات التي يستدعيها إلى الحقيقة في الختام. والحقيقة تسمو بعقله وقلبه بشكل لا يقهر. وفي الخاتمة تتغير حتى لهجة القصة، إذا ما قورنت ببدايتها المشتتة. وتتكشف الحقيقة لهذا البائس بقدر كاف من الوضوح والتحديد، بالنسبة له، على أقل تقدير.

هذا هو الموضوع. ومجرى القصة، بالطبع، يستمر عدة ساعات، تتخلله توقفات وانقطاعات، وفي شكل غير متجانس. فتارة يتكلم مع نفسه، وتارة كمن يخاطب مستمعاً غير منظور، حكماً. وهذا ما يحدث في الواقع دائماً. ولو استطاع أحد أن يتنصت ويسجل كل ما يقوله بطريقة الاختزال، لكان أقل صقلاً وتعديلاً مما هو لدى الآن، ولكن النسق السايكولوجي بقدر ما يتراءى لي، كان سيظل كما هو. إن ذلك التسجيل المتخيل بطريقة الاختزال(كما لو عدلت فيما بعد التسجيل)، هو ما اسميه في القصة بالخيالي. إنه يشبه، على نحو ما، ما طرق في الفن غير مرة ومثال على ذلك هوغو في رائعته «اليوم الأخير من حياة محكوم بالإعدام»، فقد استخدم نفس الطريقة تقريباً رغم أنه لم يستعن بطريقة الاختزال، ولكنه جوز لنفسه قدراً أكبر من مجانبة الحقيقة، مفترضاً بأن المحكوم بالإعدام يستطيع(ويملك الوقت) ليسجل مذكراته لا في يومه الأخير فحسب، بل وفي ساعته الأخيرة، وحتى في دقيقته الأخيرة. ولكن لو لم يجز لنفسه هذا التخيل لما حقق هذا العمل ذاته، العمل الأكثر واقعية والأكثر صدقاً من كل الأعمال التي كتبها.

الفصل الأول

1

من هي ومن أنا

.....هـا هي ما تـزال هنا، ما يزال كل شـيء في موضعه. اقترب وأنظر مـن لحظة إلى أخرى. غدا سيحملونها كيـف سأبقى وحيداً؟ هي الآن على الطاولـة في القاعة. صفوا طاولتين من طـاولات اللعب. والتابوت سيكون غـداً، أبيض، أبيض، من الحرير الفاخر. ولكن لا أعنى هذا....أظل أتمشى، وأريـد أن أوضـح، لنفسي المسألـة منذ ست ساعات، وأنا مـا أزال أريد أن أوضح، ولا أركز فكري. ذلك لأنني لأتمشى وأتمشى، طوال الوقت...هذا مـا كان. أريد فقط أن أقصه بانتظام. (بانتظام!). يا سادة، أنا أبعد عن أكون أديبـاً، وأنتم ترون ذلك، وليكن، سأقص، حسب ما أفهم. وذلك هو الذعر بعينه فأنا أفهم كل شيء.

إذا أردتم أن تعرفـوا، أي إذا أخذنا القصة منذ بدايتها، نقول دون لف أو دوران، إنها كانت تأتي إليّ لترهن الأشياء لتدفع ثمن إعلان في «الغولس»[٢] تقول فيه: مربية مستعدة إلى السفر، وإلى إعطاء الدروس الخصوصية في البيت إلى غـير هذا وذاك. كان ذلـك في أول الأمر، و لم أكن أميزها عن الآخرين، بالطبـع. كانت تأتي مثل غيرهـا، وعلى نفس المنـوال. وفيما بعد أخذت أميزهـا. كانت دقيقة الملامـح، شقراء الشعر، ما بـين المتوسطة والطويلة،

٢. جريدة يومية"سياسية أدبية" ذات اتجاه ليبرالي كانت تصدر في بطرسبورغ من عام ١٨٦٣ إلى عام ١٨٨٤ يرأس تحريرها أ.أ. كرايفسكي. وكانت "غولس" تتعقب نشاط دوستويفسكي باهتمام ونشرت عدة مقالات نقدية عن نشاطه. الناشر.

مرتخيــة معي دائمــاً، وكأنها تخجل (أظـن أنها كانت مــع جميع الغرباء أيضاً بهذا الشكل، وطبيعي أنها لم تكن تفرق بيني وبين هذا وذاك، أقصد كإنســان وليس كصاحب رهونات). وما أن تتسلم الفلوس، حتى تستدير في الحال، وتنصرف. كل ذلك في صمت. بينما الآخرون يجادلون كثيراً، ويماسكون ليأخذوا نقوداً أكثر، أما هي فتقنع بما يعطي لها....يبدو لي أنني أخلط...أها، قبل كل شيء، بهرتنــي أشياؤها. أقراط فضية مذهبة، مدالية صغـيرة رخيصة مما يُدلى من الرقبة – أشياء لا تساوى غير عشرين كوبيكا. وكانــت تعرف بنفسها انها لا تســاوي غير عشرة كوبيكات، ولكن كنت أرى مــن وجهها أنها نفيسة بالنسبة لها، وهــي بالفعل كل ما تبقى لها من ماما وبابا وهذا ما عرفته فيما بعد.

مــرة واحدة فقط أبحــت لنفسي الاستهزاء مــن أشيائهــا. أقصد أنا لا أبيــح لنفسي ذلك أبداً. لهجتي مع الجمهور دائمــاً مهذبة: كلمات قليلة، وتأدب، وجــد «جدية، وجدية وجدية». ولكنها أباحت لنفسها فجأة أن تجلــب فضلات (أي، بالمعنــى الدقيق) صداراً قديماً من فــراء الأرنب، و لم أتحمل، فقلت لها شيئاً فيه غمز. وإذا بها تتوهج يا أخ! وعيناها الزرقاوان، الواسعتان، المستغرقتان في التفكير تشتعلان فوراً. ولكن لم تصدر منها أية كلمة. أخذت «فضلاتها» وخرجت. وهنا لاحظتها بشكل خاص، لأول مرة، وظننت بها ظناً من هذا النوع، أقصد، بالضبط، ظناً من نوع خاص. نعــم، وأتذكر الانطباع أيضاً، أقصــد، الانطباع الرئيسي، ذروة كل شيء، إذا سمحتم وعرفتم، وأعني به بالضبط أنها شابة، وفي منتهى الشباب، في الرابعة عشرة كما يبــدو بينما كان عمرها آنذاك ستة عشرة الا ثلاثة أشهر. وبالمناسبــة ليــس هذا ما أريد أن أقوله، وليست هــذه الذروة في ذلك على الإطــلاق. وفي اليوم التالي جاءت مرة أخرى. عرفت فيما بعد أنها ذهبت بذلك الصــدار إلى دوبرونرافوف، وإلى موزر. ولكن هذان لا يقبلان غير

الذهـب، فلـم يريدا حتـى أن يتكلما معها. وكنت من قبـل قد قبلت منها مدالية صدفية لرأس امرأة (تافهة جداً) ودهشت حين فكرت في الأمر فيما بعد. أنـا أيضاً لا أقبل غير الذهب والفضة، بينما تساهلت معها في المدالية الصدفيـة. وهذا تفكيري الثاني فيها، آنذاك. أنا أذكر. في تلك المرة، أقصد لدى رجوعها من موزر، جلبت مبسم سيكارة من الكهرمان، وهو شيء، لا بأس فيه، فهو طريف، ولكنه هو الآخر لا يساوي شيئاً، على أية حال، نحـن لا نتعامـل إلا في الذهب. ولأنها جاءت بعد سـورة يوم أمس، فقد استقبلتها بصرامـة. والصرامة عندي تعني الجفـاف. ومع ذلك فلم أضبط نفسي، وأنا أعطيها الروبلين، فقلت بشيء من الانزعاج، على ما يبدو،: « هـذا لأجل خاطرك فقط. مـوزر لا يقبل هذا منك». وشددت على لأجل خاطـرك بشكل خاص، بشيء من الإشارة بالذات. كنت خبيثاً. توهجت مـرة أخرى، بعـد أن سمعت لأجـل خاطرك. ولكنها لم تحـر جواباً، و لم تـرم الفلوس. تقبلتها الفقيرة ليتكم رأيتـم توهجها! فهمت أنني وخزتها. وحـين خرجت سألـت نفسي على غرة: اسمع، هل معقـول أن الانتصار عليها يستحق روبلين؟ ها، ها، ها! أتذكر أنني رددت هذا السؤال بالذات مرتـين «هل يستحق؟ هل يستحق؟». ومع نفسي حسمته بالإيجاب، وأنا أضحك. وغلبني مرح شديد آنذاك. ولكن ذلك لم يكن شعوراً دنيئاً. كانت لي غاية، قصد. كنت أريد أن أختبرها، لأن أفكاراً بخصوصها صارت تحوم في رأسي فجأة. وكان هذا تفكيري الثالث الخاص فيها.

....طيـب، ومنذ ذلـك الحين بدأ كل شـيء. طبيعي أننـي سعيت، في الحـال، إلى أن أتقصى كل الظروف من وراء ظهرها وانتظرت مجيئها بلهفة خاصـة. لأنني كنت أتحسس انها ستأتـي عن قريب. وحين جاءت دخلت معهـا في حديث أنيس بأدب غير اعتيـادي للغاية. فإن تربيتي ليست سيئة، ولي آدابي. حم. وعندئذ حدست أنها طيبة ووديعة. والطيبون والوديعون لا

يقاومون طويلاً، ورغم أنهم لا يحسنون أبداً التملص من الحديث. يجيبون بتقتير، ولكنهم يجيبون على أية حال، وكلما طال الحديث صار أكثر، فقط أن لا تكلـوا أنتم، إذا طاب لكم. وطبيعـي أنها لم توضح لي شيئاً حينذاك. وفيمـا بعد عرفت فيما يخص «الغولس» وعن كل شيء. كانت آنذاك تنشر الإعلانـات بآخر إمكانيات لهـا. في البداية باستعلاء، بالطبع، وهي تكتب «مربيـة توافق على السفر. الشروط ترسـل في ظروف» وبعد ذلك «توافق علـى كل شيء: أن تعلم، وأن تكون مرافقـة، وتدير شؤون البيت، وترعى المريض، وتجيد الخياطة» إلى غير ذلك وذلك، مما هو معروف! وطبيعي أن كل ذلـك كان يضـاف إلى الإعـلان في مختلف طبعاتـه، وفي النهاية، حين يئسـت كتبت «بدون مرتب، للعيش فقط». ولكنها لم تجد وظيفة! عندئذ عزمت على أن اختبرها للمرة الأخيرة. أخطف نسخة اليوم من «الغولس» وأريهـا الإعلان: « امـرأة شابة، يتيمـة الوالدين تبحث عـن عمل كمربية للأطفـال الصغار، يستحسن أن يكون لدى أرمل متقدم في السن. تستطيع أن تساعد في شؤون البيت».

– انظري، نشر هذا في الصباح، وفي المساء وجدت عملاً، على الأرجح. هكذا يجب أن يكون الإعلان!.

توهجت مرة أخرى، وتوقدت عيناها، استدارت، وخرجت في الحال. ارتحـت كثيراً. بالمناسبة، كنت آنـذاك واثقاً في كل شيء، و لم أخف. لا أحد سيقبـل المبسـم. الا أن مباسمها قد نفدت أيضاً. وهـذا ما حصل، في اليوم الثالـث تأتي شاحبة منفعلة. أدركت أن شيئاً قد حصل في بيتها، وقد حصل بالفعـل. سأشرح في الحـال ماذا حصل، ولكنني أحـب الآن أن أتذكر فقط كيـف ظهرت لها غندوراً فجأة، وكـبرت في عينيها. تولدت مثل هذه النية عندي فجأة. خلاصة الأمر أنها جلبت هذه الإيقونة (عزمت أن تجلبها).... أوه، استمعـوا، استمعوا! نحن في صلـب الموضوع الآن، بينما كنت أخلط

طـوال الوقت... المسألة أنني أود أن أتذكر كل ذلك، بكل صغيرة فيه، بكل تفصيلة. طوال الوقت أريد أ أركز ذهني، ولا أستطيع، بينما هذه التفاصيل، التفاصيل...

أيقونـة الأم العذراء. العذراء والابن، بيتيـة عائلية، عتيقة، والأطار فضي مذهب. تسـاوي، طيب، تساوي حوالي ستة روبلات. وأحس أن الأيقونة عزيزة عليها. ترهنهـا برمتها، دون أن تفك الإطار. فأقول لها: من الأفضل أن تفكي الإطار. وخذي الأيقونة لك، على العموم ليس من المستحسن....

– أحقاً محظور عليك؟

– لا، ليس محظوراً، ولكن ربما تحتاجين...

– طيب، فك الإطار...

– حسناً، لا أفكه، ولكننـي سأضع الإيقونة كلها في دولاب الأيقونات هنا – قلت بعد تفكير – مع الأيقونات الأخرى تحت السراج (السراج عندي مشتعل منذ أن فتحت مكتبي) وهذه عشرة روبلات، دون لف أو دوران.

– لا حاجة لي إلى عشرة روبلات. أعطني خمسة سأستردها من كل بد.

– لا تريدين عشرة؟ الأيقونة تساوي ذلك.

أضفت، بعد أن لاحظت أن عينيها قد لمعتا مرة أخرى. صمتت. جلبت لها خمسة روبلات.

– لا تأنفـي من أحد. لقد مررت أنا نفسـي في مثل هذه الضائقات، بل أسـوأ وإذا كنت تريننـي الآن أمارس هـذا العمل....فإن ذلـك بعد كل ما تحملته....

– تنتقم من المجتمع؟ ها؟

قاطعتني فجأة بسخرية لاذعة على نحو كاف، ومنطوية في الوقت ذاته، على الكثير البراءة (أقصد العمومية لأنها آنذاك، لم تكن تميزني عن الآخرين مطلقاً، فكان قولها مبرءاً من الضغن تقريباً). وفكرت مع نفسي: « أها! هكذا أنت، طبعك يتكشف في اتجاه آخر».

قلت لها في الحال بشيء من المزاح والسرية:

– «أنا جزء من ذلك الجزء من الكل، الذي يريد أن يأتي الشر، ولكنه يصنع الخير...»[٣]

نظرت إليّ سريعاً، وبفضول كبير فيه أيضاً الكثير من الطفولة:

– على مهلك....ما هذه الفكرة؟ من أين هي؟ لقد سمعتها في مكان...

– لا تجهدي ذهنك، في هذه الجمل يقدم ميفيستوفيل نفسه لفاوست. هل قرأت فاوست؟

– ليس.....بعناية.

– يعني لم تقرئيه قط. يجب أن تقرئيه. بالمناسبة أرى على شفتيك افترار السخرية مرة أخرى. أرجوك، لا تتصوريني من قلة الذوق، بحيث أردت أن أقدم نفسي كميفيستوفيل تجميلاً لدوري كصاحب رهونات. صاحب الرهونات يبقى صاحب رهونات. نحن نعرف.

– أنت غريب جداً. لم أرد قط أن أقول لك شيئاً من هذا.....

– أرادت أن تقول: « لم أكن أتوقع أن تكون رجلاً مثقفاً». ولكنها لم

٣. في المشهد الثالث من تراجيديا غوته «فاوست» يعلن ميفيستول «انا جزيئه من القوة الراغبة في الشر ابدا، الخالقة لما هو خير فقط..» . الناشر.

تقـل ذلك، رغـم أنني كنت أعرف مـاذا دار في ذهنها. وقعـت من نفسها موقعاً حسناً. قلت ملاحظاً:

– في كل مجـال يمكـن أن يصنع الخير. أنا لا أتحـدث عن نفسي، بالطبع. لنقل أنني لا أفعل غير السوء، ولكن...

–بالطبع يمكن أن يصنع الخير في كل مكان – قالت وهي تلقى عليّ نظرة سريعة نافذة– في كل مكان بالضبط – أضافت ذلك فجأة. أوه، أنا أذكر كل هذه اللحظات، أذكرها! كما أحب أن أضيف ان هذا الشباب، هذا الشباب الحبيب إلى القلب، حين يريد أن يقول شيئاً ذكياً نافذاً، يبدو على وجهه فجأة وبكثـير من سلامـة النية والسذاجة ما معناه: « أنا أقـول لك الآن شيئاً ذكياً نافـذاً» وليس عن غرور، كما يفعل من على غرارنا، فيرى المرء، على طول، أنهـا تقدر بنفسها هذه الأشياء كلها تقديراً عظيماً، وتثق، وتحترم وتفكر في أنكـم، أنتم أيضاً، تحترمون كل هذه الأشياء كما تحترمها هي بالضبط. يا لها من سلامة نية! وبذلك يكون النصر. ما أكثر ما كان فيها من فتنة!

أتذكر، و لم أنس شيئاً! حين خرجت عزمت أمري.

في ذلك اليوم قمت بآخر التحريات، فعرفت عنها سائر الأشياء من أسرار حياتها الراهنة، وكنـت قد عرفت عن أسرار حياتها الماضية كلياً من لوكيريا التي كانت تخدم عندهم آنذاك، والتي رشوتها قبل بضعة أيام من هذا التاريخ. وكانت هـذه الأسرار من الفظاعة بحيث لا أفهـم كيف كان من الممكن أن تضحك، كما فعلت قبل حين، وأن تستفسر عن كلمات ميفيستوفيل، وهي التـي عانت بنفسها من مثل تلك الفظاعة. ولكنه الشباب! وهذا بالذات ما فكرت فيه آنذاك بخصوصها باعتزاز وفرح، فإن في ذلك شهامة أيضاً.

وكان لسان حالها يقول: ولو أنا على حافة الانطفاء، إلا أن كلمات غوتة العظيمـة تتألق. والشباب دائماً أريحي، ولو قطرة من الأريحية، ولو بطريق

ملتـو. وأنا أقصدهـا، أقصدها وحدها. والشيء الرئيسـي أنني نظرت إليها آنـذاك وكأنها لي، و لم أشك في جبروتي. إنهـا فكرة شهوانية للغاية حين لا يراودكم شك.

ولكـن ماذا بي. لئـن مضيت على هذا المنوال، فمتـى سأركز كل شيء؟ أسرع، أسرع. ليس هذا المطلوب على الإطلاق يا ربي!

2

عرض زواج

«خباياها» التي عرفتها أوضحها باختصار: توفي أبوها وأمها منذ زمان، قبـل ثلاثة أعوام من هـذا التاريخ وبقيت مع عمتيهـا المختلتين. أعني، قليل في حقهما أن توصفـا بالمختلتين. إحداهما أرملة، كثيرة العيال، ستة أطفال أحدهـم أصغر من الآخر، والثانية عانس عجـوز، بغيضة. كلتاهما بغيضة. وأبوهـا كان موظفـاً، ولكنه من الكتبة، حصل على لقـب نبيل بشخصه لا بالوراثـة. وباختصار: كل شيء يناسبني. ظهرت وكأنني قادم إليهم من عالم رفيـع أنا الآخر ملازم ثان متقاعـد لفوج لامع، ونبيل بالوراثة، ومستقل إلى غير ذلك. أما بخصوص مكتب الرهونات، فإن العمتين ما كان في وسعهما أن تنظـرا إلى ذلك إلا باحـترام كانت هي قد قضت ثلاث سنوات تعيش في عبودية لدى عمتيهـا، ولكنها صمدت للامتحان، على أية حال – لحت أن تصمـد، تمكنت أن تطلع من تحـت عمل يومي لا شفقة فيه. وكان هذا يعني شيئـاً من الطموح مـن جانبها إلى ما هو سام ونبيل! لأجل أي شيء أردت أن أتزوجهـا؟ بالمناسبـة، لا تكترثوا بي، هذا فيمـا بعد....ليس هذا بيت القصيـد! كانت تعلم أطفال عمتها، وتخيط الثياب، وفي الختام ليس هذا فقـط، بل كانت تغسـل الأرض وهي مصدورة. بـل وكانت العمتان في

الحقيقـة تعمدان إلى ضربها، وتعيرانها على لقمة الخبز، وانتهى الأمر بهما إلى أن تنويـا بيعها. تفو! لا أحب الكلام عن هـذه القذارة من التفاصيل. خبرتنـي بكل هذه التفاصيل فيما بعد. طـوال سنة كاملة لاحظ كل ذلك حانوتي بدين جار لهن، ليس حانوتياً بسيطاً، بل يملك محلين للبقالة. وكان قد أسلم زوجتيه إلى الهلاك، وكان يبحث عن ثالثة. فوقعت في عينه فكان يقـول: « وديعة، نشأت في عوز. أنـا أتزوج. من أجل اليتامى». وبالفعل كان لـه يتامـى. خطبها، وراح يتآمر مع العمتـين. وكان في الخمسين من العمر، فضلاً عن ذلك. وهي في حالة ذعر. وفي هذه الفترة بالذات أخذت تتردد عليّ للإعلان في «الغولس». وأخيراً، صارت تتوسل إلى عمتيها أن تمهلاها. أقل قطـرة من الوقت لتفكر. أعطتاها هـذه القطرة ولكن قطرة واحدة، و لم تعطياها قطرة ثانيـة، كانتا تقرصانها قائلتين «نحن لا نعرف ماذا نأكلن و نطعم فما زائداً». عرفت كل ذلك، وفي ذلك اليوم بعد الذي حدث في الصباح عزمت أمري. وحين جاء التاجر في المساء، وجلب من دكانه رطل حلويات يسـاوي نصف روبل، وهي جالسة معه، استدعيت لوكريا من المطبخ، وامرتها بأن تذهب إليها، وتهمس لها بأنني عند الباب الخارجـي، وأريـد أن أقول لها شيئـاً مستعجلاً للغاية. بقيـت راضياً عن نفسي. على العموم كنت طوال اليوم شديد الرضى.

وعند الباب الخارجي وبحضور لوكيريا أوضحت لها، وهي المندهشة من استدعائي لها، بأني سعيد ولي الشرف.....ثانياً، ولكي لا تندهش من أسلوبي هذا، باستدعائهـا إلى الباب الخارجي أضفت: «أنا رجل صريح، درست ظروف المسألة». و لم أكذب في قولي أنا صريح. ولكن دعكم من هـذا. لم أتكلم بشكل معتـبر فقط مظهراً أنني رجل ذو تربية، بل وبشكل متفـرد. وهذا هو الشـيء الرئيسي. وهل من الخطيئة حقـاً الإفصاح عن النفس؟ أريـد أن أتأمل في نفسي، وأتأمل فيها. يجب أن أقول مع وضد، وأقول وحتى فيما بعد كنت أتذكر هذا باستمتاع، رغم ما فيه من حماقة:

أعلنت عندئذ، وبلا أي تلجلج، بأنني أولاً لست على قدر مميز من الموهبة، ولست على قدر مميز من الذكاء. بل ولعلي لست على قدر مميز من الطيبة، مجـرد أناني رخيص بما فيه الكفاية (أتذكـر هذا التعبير الذي دبجته وأنا في الطريـق، ورضيت به) ومن المحتمل جـداً جداً أن انطوى على الكثير من السماجـة في نـواح أخرى. قلت كل ذلك بافتخـار من نوع خاص، من المعروف كيف يقال مثل هذه الأشياء وكان لي، بالطبع، من الذوق بحيث لم أعلـن عـن مكارمي أيضـاً، بعد أن أعلنـت نقائصي بشهامـة، و لم أقل «وبمقابل ذلك لي كـذا وكذا، وكيت وكيت» رأيت أنها ما تزال تتوجس توجساً هائلاً، ولكنني لم أخفف شيئاً، بل بالعكس شددت عن عمد، بعد أن رأيـت توجسها، فقلت بصراحة: سنكـون في شبع ولكن لا حُلل ولا مسارح ولا حفلات راقصة، إلا فيما بعد، حين أبلغ أهدافي. وهذه اللهجة الحـادة جذبتني بشكل حاسم. وأضفت، على الماشي أيضاً قدر الإمكان، بأنني إذا كنت أزاول هذه الشغلة، أقصد الرهونات، فإن لي، بالفعل، مثل هذا الهدف وذلك الاعتبار. على مهلكم، يا سادة، طوال حياتي، أنا أول مـن يكره مكتب الرهونات هذا، ورغـم أن من المضحك في واقع الأمر، التحدث مـع النفس بهذه العبـارات الغامضة، إلا أنني كنـت «أنتقم من المجتمـع» بالفعل، بالفعل، بالفعل! على هذا فان غمزها في الصباح بأنني «أنتقم» لم يكن منصفاً. أقصد، لو قلت لها بصريح العبارة «نعم، أنا أنتقم من المجتمـع»، لضحكت، كما ضحكت قبل حـين في الصباح، ولطلع الأمـر مضحكاً عن حـق وحقيق. ولكن تبين أن في الإمـكان أسر الخيال بتلميـح غير مباشر، بعد أن أطلق العبارة الغامضة. وفضلاً عن ذلك لم أكن أخشـى شيئـاً في ذلك الحين. إذ كنـت أعرف أن الحانوتـي البدين أدنس منـي، وأنني، وأنا عند البـاب الخارجي، كنت محرراً. كنـت أفهم ذلك. أوه، الإنسان يفهم الحقارات بشكل جيد جداً. ولكن هل هي حقارات؟ وكيف تحكم عن الإنسان هنا؟ هل معقول أنني لم أكن أحبها، حتى آنذاك؟

على مهلكم، آنذاك لم أذكر لها، بالطبع، ولا نصف كلمة عن المعروف. بل بالعكس، نعم، بالعكس، قلت «سأظل أنا مديناً لك بمعروف، ولست أنت». يعني عبرت لها عن ذلك بالكلمات، و لم أتحمل، ولربما بدا ذلك حماقة، لأنني لاحظت افترارة خاطفة على وجهها، ولكنني ككل ربحت بالتأكيد. على مهلكم، إذا كنت أتذكر كل هذه القذارة فلا بد أن أتذكر الوضاعة الأخيرة. كنت أقف، وقد جال في رأسي: أنت مديد القامة، ممشوق مهذب و...و....أخيراً، وأنا أقول بلا تبجح، لست بلا جاذبية. هذا ما طاف في ذهني. وطبيعي أنها، وهي عند الباب الخارجي، قالت لي: نعم، ولكن.....ولكن يجب أن أضيف أنها، وهي عند الباب الخارجي، فكرت طويلاً قبل أن تقول: نعم. فكرت، واستغرقت في التفكير، حتى أنني سألتها: « إذن، ماذا؟»، بل و لم أحتمل وسألت بالعبارة المهذبة: « إذن، ماذا ترين؟».

– انتظر، أنا أفكر.

وكان وجهها من الجدية، بحيث كان من الممكن آنذاك قراءة ما فيه! ولكنني شعرت بالإساءة. فأفكر مع نفسي: « هل معقول أنها تتخير بيني وبين التاجر؟» عند ذلك لم أكن قد فهمت! عند ذاك لم أكن أفهم أي شيء، أي شيء! وحتى اليوم لم أفهم أي شيء! أتذكر أن لوكيريا لحقت بي حين كنت قد خرجت، وأوقفتني في الطريق، وقالت بعجلة: « جازاك الله، يا سيد، على أنك تخطب آنستنا العزيزة، فقط أن لا تقول لها ذلك، فهي أنوف».

طيب، أنوف! أها، أنا نفسي أحب الأنوفات. فهن صالحات بشكل خاص، حينما حسناً، حينما لا تشك في تسلطك عليهن. ها؟ يا لك من رجل حقير بلا براعة! آه كم كنت مرتاحاً! هل تعرفون كان من الممكن أن تخطر لها، حين كانت واقفة عند الباب الخارجي، ساهمة لتقول لي:

نعـم، فشعرت بالإهانة هل تعرفون كان من الممكن أن تخطر لها حتى هذه الفكرة: « أليس من الأفضل إذا كانت التعاسة هنا وهناك، أن أختار الأسوأ، أعنـي، الحانوتي البدين، وليضربني السكير حتى المـوت!» ها؟ ماذا ترون؟ هل كان من الممكن أن تخطر هذه الفكرة؟

نعـم، والآن أيضـاً لا أفهـم، الآن أيضاً لا أفهم شيئـاً. وقبل لحظة قلت: مـن الممكن أن تكون لها هذه الفكرة: أختار مـن التعاستين أسوأهما، يعني التاجـر؟ ومن كان الأسوأ عندهـا آنذاك: أنا أم التاجـر؟ التاجر أم صاحب الرهونـات الذي يستشهـد بغوته؟ هذا موضع سـؤال! أي سؤال؟ لا تفهم ذلك؟ الجواب مطـروح على الطاولة، وتقول: سـؤال! ولكن أبصق عليّ! لسـت أنا بيت القصيد.....بالمناسبة مـاذا يعنيني الآن، إذا كنت أو لا أكون بيـت القصيد؟ هـذا ما لا أستطيـع البت فيه مطلقـاً. الأفضـل أن أعود إلى الاستلقاء. رأسي يوجعني.....

3

أكثر الناس إحساناً، ولكنه لا يصدق

لم أغف. ثم أن نبضاً يدق في مكان من رأسي. أود لو أمثل كل هذا، كل هـذه القذارة. أوه، قذارة! أوه، من أية قذارة انتشلتها! وكان يجب أن تفهم ذلك، وتقدر فعلتي! طابت لي أيضاً أفكار مختلفة، من مثل، إن عمري واحد وأربعون، بينما هي لم تتجاوز السادسة عشرة. سحرني هذا، هذا الإحساس بالفارق، هذا لذيذ جداً، لذيذ جداً.

أردت مثلاً أن يكــون الزفاف a› l›panglaise[٤] أي نحن الاثنان فقط، ومعنا شاهدان لا غير، أحدهما لوكيريا ومن بعد إلى عربة القطار رأساً، على الأقــل، إلى موسكو، مثــلاً (حيث صادف أن طرأ لي فيها شأن من الشؤون) ننــزل في فنــدق، لحوالي أسبوعــين. مانعت، و لم تأذن، فاضطــررت إلى أن أذهــب إلى العمتين لتقديم فروض الاحترام.بمثابة الوالدين اللذين آخذ منهما منهمــا. تنازلت. وقمت بالواجب. بل وأهديت لكل من هاتين العجماوين مائــة روبل، ووعدتهمــا باكــثر دون أن أخبرها عن ذلك حتــى لا أزعجها بوضاعــة الحــال. وعلى الفور صــارت العمتان في ملمــس الحرير. وجرى جــدال أيضاً حول جهاز العروس. لم يكن تملك أي شيء، في المعنى الدقيق لهــذه الكلمة، ولكنها لم تطلب شيئاً أيضــاً. إلا أنني نجحت في الإثبات لها علــى أنه لا يجوز أن لا يكون لديها أي شيء، وقمت أنا بتوفير الجهاز، ومن سيقــوم بتوفير الجهاز غيري؟ ولكن بصقة عليّ. وعلى أية حال استطعت أن أنقل لها عند ذاك أفكاري المختلفة، لتكون معلومة لديها على أقل تقدير. بل ولربما استعجلت. والشيء الرئيسي أنها منذ البداية، رغم تماسكها، اندفعت نحــوي بحب، وكانت تستقبلنــي بغبطة حين كنت أجــيء في الأمسيات، وتقصــ بتأتأتها (تأتأة بــراءة ساحرة!) كل طفولتهــا، وصباها الباكر، وعن بيت الأبوة، وعن أبيها وأمها. ولكنني سكبت على كل هذه النشوة ماءً بارداً في الحــال وهذه كانت فكرتــي. كنت أقابل الغبطــة بالصمت، المحبب، بالطبع..... ومــع ذلــك فقد رأت بسرعة أننا مختلفــان، وأنني لغز. بينما أنا، وهــذا مهم، كنت أسعى لأن أبدو كلغز! فأنــا، ارتكبت هذه الحماقة كلها، ربما، لأحوك لغزاً حــولي! أولاَ: الصرامة. وبهذه الصرمة أخذتها إلى البيت. وباختصــار أقمت نظاماً كاملاً آنذاك، ولو كنت راضياً. أوه، لقد تكون من تلقــاء نفســه دون أي عناء. ولكن كان لا بد من ذلك، فقد كان عليّ أن أقيم

٤. على الطريقة الإنجليزية (بالفرنسية). الناشر.

هـذا النظام لاعتبار قاهر. يعني مـن غير المعقول أن أكذب على نفسي! كان النظـام حقيقياً. لا، اسمعوا، إذا كنتم ستتأملـون في إنسان، تأملوا فيه وأنتم تعرفون أمره.....اسمعوا!

كيـف البدء بذلـك، إنه لأمر صعب جداً. حالما تبـدأ بتبرير نفسك حتى تواجهـك الصعوبـة. المسألـة أن الشباب يحتقـر الفلوس، مثـلاً، بينما أنا انغمسـت في الفلوس وضعـت كل ثقلي على الفلوس، وقـد انغمست إلى حد أنها أخذت تصمت أكثر فأكثر. كانت تفتح عينيها الوسيعتين وتستمع، وتنظر، وتصمت.... الشباب، كما تعرفـون، شهم، أقصد الشباب الجيد، شهـم ومندفع، ولكنه قليـل الاحتمال، حالما لا يروقه شـيء، حتى يزدريه. بينما كنت أريد البحبوحة، أريد أن أغرس البحبوحة في قلبها تماماً، أغرسها في نظرتهـا القلبية. أليس كذلـك؟ آخذ مثلاً وضيعاً. كيـف كان لي، مثلاً، أن أوضـح مكتـب الرهونات، إلى شخص من مثلهـا؟ طبيعي أنني لم أتكلم على المكشوف. وإلا فكأنني سأعتذر عن مكتب الرهونات، بل عملت، إذا صح القول، باعتزاز. وتحدثت صامتاً تقريباً. فأنا أستاذ في التحدث صامتاً، طوال حياتي كنت أتحـدث صامتاً، وعايشت نفسي في مآس كاملة صامتاً. آه، لقـد كنت أيضـاً تعيساً! كنت منبـوذاً من الجميع، منبـوذاً ومنسياً، ولا أحـد، لا أحد يعرف ذلك! وفجأة راحت بنـت السادسة عشرة هذه تلتقط التفاصيـل عني من الناس، الأوغاد بعد هذا، وظنـت أنها تعرف كل شيء، بينمـا بقي السر المصـون في صدر هذا الرجل وحده! ظللـت صامتاً طوال الوقـت، على الأخص، على الأخص معها، ظللـت صامتاً حتى يوم أمس. ولماذا صمت؟ كإنسان أنوف. كنت أريد أن تعرف بنفسها، وبدوني، ولكن لا عـن طريـق القصص الدنيئة، بـل أن تحدس ذلك الرجـل بنفسها، وتنفذ إليـه! أردت الاحـترام التام، وأنـا استقبلها في بيتـي. أردت أن تقف أمامي بالدعـاء، على ما كابدت من عذاب. وكنت مستحقاً ذلك. أوه كنت دائماً

أنوفا، كنت دائماً أريد كل شيء أو لا شيء! لأنني لست قنوعاً بالنصف في السعادة، بل كنت أريد كل شيء، ولهذا السبب بالذات تصرفت ذلك التصرف آنذاك قائلاً لنفسي: « دعها تحدس بنفسها، وتقدر!»، لأنني ولا بد أن توافقوا على ذلك، لأنني إذا شرعت بأن أوضح لها، وألمح، وأداور، وأطلب الاحترام، فكأني أسأل صدقة، سواء بسواء..... على أية حال..... على أية حال، لماذ أتحدث عن هذا!

حماقة وحماقة، وحماقة، وحماقة! آنذاك أوضحت لها صراحة، وبلا شفقة (وانا أشدد على بلا شفقة) أوضحت لها بكلمتين اثنتين بأن شهام الشباب روعة، ولكن لا تساوي فلساً واحداً. ولماذا لا تساوي؟ لأن الشباب ينالها برخص، قبل أن يجرب الحياة، أو كما قال القائل: «انطباعات العيشة الأولى»[٥]. ولنرك في العمل أيها الشباب اللامع! الشهامة الرخيصة سهلة دائماً، حتى التضحية بالحياة، وهذا رخيص، لأنه مجرد فوران الدم، وفيض في القوى[٦] والنفس تهوى الجمال بهيام! لا، عليك بمأثرة صعبة من الشهامة، هادئة، وبلا ضوضاء، ولا بهرج، يجابهك فيها افتراء، وحيث الكثير من التضحية، لا قطرة من المجد، وحيث يتصورط الجميع وغداً، أيها الشاب اللامع، بينما أنت أشرف الناس على الأرض. هيا، حاول هذه المأثرة، لا، أنت سترفض! بينما أنا طوال حياتي أقوم بهذا، اضطلع بهذه المأثرة. في البداية راحت تجادل، وبعد ذلك أخذت تلوذ بالصمت، بل الصمت المطبق، عيناها فقط مفتوحتان على سعتها، وهي تسمع، عيناها الوسيعتان، النافذتان و.....و، بالإضافة إلى ذلك، رأيت فجأة ابتسامة مرتابة صموتاً، غير مريحة. غفر الله لهذه الابتسامة، لقد أخذتها إلى البيت، على أية حال. الحقيقة أيضاً، لم يكن لديها مكان آخر تذهب إليه....

٥. من قصيدة لبوشكين بعنوان "الطاغوت" (١٨٢٣). الناشر.
٦. من قصيدة للشاعر الروسي ليرمنتوف. الناشر.

4

مشاريع ومشاريع

من كان البادئ منا آنذاك؟

لا أحـد. بدأ من تلقاء نفسـه منذ الخطوة الأولى. قلـت أنني أخذتها إلى البيـت بالصرامـة، ومع ذلـك فقد لنت منـذ الخطوة الأولى. وهـي ما تزال عروسـاً شرحت لها أن تتكفل باستقبـال الرهائن، وإعطاء الفلوس، و لم تقل شيئـاً عندئذ (لاخطوا هذا). وفضلاً عن ذلـك انكبت على العمل بحماس ولكـن الشقة، والأثاث وكل شيء بقي، علـى حاله، بالطبع. الشقة غرفتان إحداهما قاعة كبيرة، أحيطت فيها الخزانة بسياج، والثانية، كبيرة أيضاً، هي غرفتنـا العامة وهي غرفـة النوم أيضاً. وأثاثي شحيـح، وحتى أثاث العمتين أحسـن منـه. ودولاب الأيقونات عنـدي بسراج، وهـو في القاعة، حيث توجـد الخزانـة، وفي غرفتي دولاب فيـه بعض الكتـب، وصندوق صغير، والمفاتيـح عندي، وهنـاك أيضاً سرير، ومناضد ومقاعـد. قلت لها وهي ما تـزال عروساً أن روبلاً لا أكثر مخصص في اليوم لإعالتنا، أقصد لطعامنا، أنا وهـي، ولوكيريا التي استهويتا لتعمل عندنا، لأننـي «بحاجة إلى ثلاثين ألفاً في ثـلاث سنوات، وبغير هـذه الطريقة لا نستطيـع أن نجمع الفلوس». و لم تعترض، ولكنني بنفسـي زدت الإعالة ثلاثين كوبيكا. وبخصوص المسرح أيضـاً، قلت للعروس لن تكون هناك مسـارح، ومع ذلك اقترحت الذهاب إلى المسـرح مـرة في الشهـر، وفي مكان معتـبر أيضاً، كرسيـان في القاعة. ذهبنـا سوية، ثلاث مـرات، وشاهدنا «في السعـي إلى السعادة» و «الطيور

الصداحة» [٧]، كما يبدو لي، (أوه، بصقة عليها، بصقة!) كنا نخرج صامتين، ونعود صامتين. فلماذا، لماذا لزمنا الصمت منذ البداية؟ في البداية لم يكن بيننا خصام، ومع ذلك صمت إلا أنها كانت، أنذاك، تحدجني بنظرة مختلسة، على ما أذكر، وما إن لاحظت ذلك، حتى شددت من صمتي. حقاً، أنا الذي اعتصمت بالصمت، لا هي.

من ناحيتها كانت هناك سورات مرة أو مرتين، تندفع لمعانقتي، ولكن لما كانت هذه سورات معتلة هستيرية، بينما كنت بحاجة إلى سعادة متينة، واحترام من جانبها، فقد استقبلتها ببرود. وكنت على حق في ذلك: ففي كل مرة تحصل فيها سورات يتبعها خصام في اليوم التالي.

أقصد لم يكن خصاماً، بل صمتاً، على أية حال، يرافقه من جانبها مظهر أكثر تحدياً فأكثر. «تمرد واستقلال» هذا ما كان، ولكنها لم تكن تحسنه. نعم، إن ذلك الوجه الوديع صار يكتسي جسارة متزايدة. ربما تصدقون أنني صرت عندها غثاً، أنا درست ذلك. أما خروجها عن أطوارها بسورات فلم يكن في ذلك شك. طيب، كيف صارت تتذمر فجأة من بؤسنا، وهي التي خرجت من مثل هذه القذارة والفقر، وبعد أن كانت تعمل في غسل الأرض! لم يكن بؤساً بل كان اقتصاداً، لعلمكم. وما هو ضروري سواء في الملبس مثلاً، وفي النظافة، فهو في فخامة. من قبل أيضاً كنت دائماً أحلم بأن تفتن النظافة في الرجل زوجته. وعلى أية حال لم تكن تتذمر من البؤس، بل من تقتيري المزعوم في الإنفاق. تفكر: « عنده أهداف، يريد أن يبدي صلابة

٧. الأولى دراما ب.ي. اليوركيفيتش (توفي عام ١٨٨٤) قدمت للمسرح في الفترة التي كان دوستويفسكي يعمل فيها على "الوديعة" وبهذه الطريقة، يؤرخ دوستويفسكي حسب عاداته الأحداث، ويشدد على معاصرة الحدث، وبالتالي، القضايا المطروحة في عمله. والثانية أوبريت للملحن الفرنسي ج. افينباخ (١٨١٩ – ١٨٨٠) بعنوان "بريكولا" قدمت لأول مرة في روسيا في مسرح الكسندرنسكي في بطرسبورغ بعنوان "الطيور الصداحة" عام ١٨٧٠. الناشر.

خلق». فجأة امتنعت عن الذهاب إلى المسرح من تلقاء نفسها: وثنية السخرية تصير أقوى فأقوى...وأشدد من صمتي، أشدد من صمتي.

ألا أبـرر نفسي؟ الشيء الرئيسي هنا هـو مكتب الرهونات، اسمحوا لي: كنـت أعرف أن امـرأة، وفي السادسة عشرة أيضـاً، لا تستطيع إلا أن تخضع للرجـل كليـاً. لا توجد في النساء أصالـة. تلك بديهية، وما تـزال حتى الآن بديهيـة، بالنسبة لي! وما هـو ذلك المسجى في القاعـة: الحقيقة هي الحقيقة، وهنـا ميـل[٨] نفسه عاجز عـن أن يفعل شيئـاً! والمـرأة العاشقـة، أوه، المرأة العاشقـة، تعبد بعمى حتى عيوب الكائن المعشوق ورذائله. إنه نفسه لن يجد لرذائلـه المـبررات التي تجدها لـه. إن ذلك أريحية، ولكنه ليـس أصالة. المرأة قتلتهـا الأصالـة وحدها. فلماذا، وأكرر، لماذا تشـيرون لي إلى الطاولة هناك؟ وهل ذلك المسجي على الطاولة أصالة حقاً؟ أوف!

اسمعوا، كنت موقناً من حبها آنذاك. ذلك لأنها ارتمت على رقبتي آنذاك. يعنـي كانت تحبني، بالأحـرى، كانت تود لو تحبني. نعم، هذا ما كان. كانت تـود لو تحبني، تبحث عن ذلـك الحب. والشيء الرئيسي هو أنه لم تكن هناك أية رذائل لتضطر أن تجد المبررات لها. أنتم تقولون: صاحب رهونات. الجميع يقولـون ذلك. وماذا في صاحب الرهونات؟ يعنـي هناك أسباب جعلت من أشهـم الناس صاحب رهونات. لعلمكم، يا سـادة، هناك أفكار.....أقصد، لعلمكم، إذا كانت أية فكرة تطلق ويفصح عنها بالكلمات فان ذلك سيكون حماقـة فظيعة، سيكون عيباً على الناطق نفسـه. ولأي سبب؟ لا سبب. لأننا جميعـاً وساخـة، ولا نحتمل الحقيقـة، أو لا أدري ماذا. قلـت الآن «أشهم الناس». ذلك مضحك، وفي الوقـت ذاته، هذا مـا كان. لأن ذلك حقيقة، أعنـي أصدق أصدق حقيقة! نعم، كان لي الحـق في أن أريد أن أتكفل نفسي

٨. هو الفيلسوف والاقتصادي الإنجليزي جون ستيوارت ميل (١٨٠٦ – ١٨٧٣) الناشر.

آنـذاك، وأفتح هذا المكتب: « لقـد أنكرتموني، أيها الناس، أقصد طردتموني بصمت مزدر. رددتم على اندفاعي اللهوف نحوكم بإساءة لطول حياتي. فقد كنـت إذن محقاً في أن أحتجز عنكم بحائط، وأجمع هذه الثلاثين ألف روبل، وأختـم حياتي في مكان ما في القرم، على الساحـل الجنوبي، في الجبال، في بساتين الكروم، في ضيعتي المشـتراة بهذه الثلاثين ألفاً، والأهم، بعيداً عنكم جميعـاً، ولكـن دون حقد عليكـم، وفي ذاتي مثلي، ومعي المـرأة الحبيبة إلى قلبـي، والعائلة، إذا كتب الله ذلـك، أساعد الفلاحـين المجاورين». لطيف، بالطبـع، أن أتحدث بذلك إلى نفسي الآن، وإلا فأي شيء سيكون أكثر حماقة مما لو أعلنت ذلك جهـاراً؟ وهذا هو السبب في جلوسنا صامتين. فماذا كان بوسعها أن تفهم: ستة عشر ربيعاً، أول الصبا، ماذا كان في مستطاعها أن تفهم مـن مبرراتي، عذاباتـي؟ هنا التصلّب، والجهل بالحيـاة، والمعتقدات الصبوية الرخيصـة، وعنى الدجاج «للقلوب الجميلة»، والشـيء الرئيسي هنا مكتب الرهونـات، وكفى! (هل هو معقول أنني كنت وحشاً في مكتب الرهونات، هـل معقول أنها لم تر كيف كنت أسألك، وهل كنت آخذ شيئاً زائداً؟)! أوه، ما أفظع الحقيقة على الأرض! هذه الفتنة، هذه الوديعة، هذه السماء – كانت طاغيـة روحي القاهـرة، ومعذبتي! سأكذب على نفسـي، إذاً لا أقول ذلك. تظنـون أنني لم أكـن أحبها؟ من يستطيـع أن يقول أنني لم أكـن أحبها؟ تلك هي السخرية، هنا سخرية القدر والطبيعة الخبيثة! نحن ملعونون، حياة الناس ملعونة عموماً!(حياتي بشكل خاص). أنا أفهم الآن بأنني أخطأت في شيء! شـيء هنا لم يكن كما يجب. كان كل شيء صافياً، خطتي صافية كالسماء: « صارم وأبي، ولا أحتاج إلى أية مواساة خلقية من أحد، أتعذب صامتاً». وهذا مـا كان، لم أكذب! «سترى بنفسها فيما بعد أن هـذه كانت شهامة، ولكنها لم تستطـع أن تلحـظ، وحين ستجدس هذا يوماً مـا، ستثمنه عشرة أضعاف، وتنهـار راكعة، ضامة يديها في الدعاء». تلك هـي الخطة. ولكنني نسيت أو أغفلـت شيئاً هنا. لم أستطع أن أقـوم بشيء ما. ولكن كفى، كفى، ممن أطلب

المغفرة الآن؟ انتهى يعني انتهى. كن أكثر جرأة، أيها الرجل كن فخوراً! لست ملوماً!

أنا أقول الحقيقة، ولا أخاف أن أقف أمام الحقيقة وجهاً لوجه: هي الملومة، هي الملومة!

5

الوديعة تتمرد

بدأت المشاحنات حيت ارتأت، فجأة، أن تعطي الفلوس حسب هواها، وتقدر الأشياء، أعلى من قيمتها، بل تكرمت مرتين أو نحوهما، ودخلت في نقاش معي في هذا الموضوع. لم أوافق. وهنا ظهرت عجوز هي زوجة نقيب.

جاءت العجوز زوجة ضابط برتبة نقيب تحمل ميدالية مما يعلق في الصدر هي هدية زوجها الراحل، تذكار كما هو ملحوظ. قررت لها ثلاثين روبلاً. أخذت تتأوه شاكية، وترجو أن نحفظ لها الرهن، ونحن نحفظه بالطبع. ولكنها، باختصار، تأتي بعد حوالي خمسة أيام، وتطلب أن تستبدل الميدالية بسوار لا يساوي حتى ثمانية روبلات، وطبيعي أنني رفضت. ولربما خمنت عندئذ شيئاً من عيني زوجتي، فجاءت بغيابي، فبادلتها بهذه الميدالية.

عرفت بذلك في نفس اليوم، وأخذت أتكلم معها بسكينة، ولكن بحزم وتحكيم العقل. كانت جالسة على الفراش، تنظر إلى الأرض، وتشحط طرف قدمها اليمنى على البساط (عادتها المشهورة)، وابتسامة خبيثة على

شفتيها. عندئذ لم أرفع صوتي قط، وأعلنت بهدوء أن الفلوس فلوسي، وأن لي الحق في أن أنظر إلى الحياة بعيني أنا، وأنني حين دعوتها إلى بيتي، لم أخف عنها شيئاً.

وثبت فجأة، وراحت تهتز بكل كيانها وماذا تتصورون – فجأة أخذت تضرب الأرض بقدميها حنقاً عليّ. كان ذلك وحشية، كان ذلك نوبة، كان ذلك وحشية ونوبة. صعقت من الذهول، لم أكن أنتظر مثل هذه الفورة قط. ولكن لم أفقد أعصابي، بل و لم أُبدِ حركة، وعدت ثانية أعلن بصراحة بصوت هادئ كالسابق: منذ الآن سأحرمها من المشاركة في أشغالي. قهقهت في وجهي، وخرجت من الشقة.

قوام الأمر أنها لم تكن تملك الحق في الخروج من الشقة. منذ أن خطبتها اتفقنا على ألا تخرج إلى أي مكان بدوني. في المساء عادت. لم أنطق بكلمة.

في اليوم التالي خرجت أيضاً في الصباح، وبعد غد أيضاً. أغلقت المكتب، وذهبت إلى العمتين. وكنت قد قطعت صلتي بهما منذ الزفاف، لا تزورانني، ولا أزورهما. وتبين الآن أنها لم تكن عندهما. استمعتا إليّ بفضول، وضحكتا مني في وجهي قائلتين: « هذا ما تستحقه». ولكنني كنت أتوقع ضحكهما. ورشوت العمة الصغيرة العانس، بمائة روبل، في التو والبقعة، وأعطيتها خمسة وعشرين روبلاً مقدماً. بعد يومين تأتي العمة إلي، وتقول: « المتورط في الأمر هو الضابط يفيموفيتش الملازم ورفيقك السابق في الفوج». اندهشت جداً. إن يفيموفيتش هذا ألحق بي الأذى في الفوج أكثر من أي شخص آخر، وقبل شهر جاء إلى المكتب بحجة الرهونات مرة أو اثنتين، وأتذكر أن عديم الحياء هذا أخذ يضحك مع زوجتي عنجها، تقدمت منه، وقلت ألا يتجاسر، ويأتي إليّ، متذكراً علاقاتنا. ولكن لم يدر في خلدي قط حتى التفكير بشيء وضيع، بل ظننت أنها مجرد سفاهة. وإذا العمة تعلن

الآن أن موعداً غرامياً قد ضرب له عندها، وأن المدبرة لكل هذه الأمور هي يوليا سامسونفنا، أحد معارف العمتين في السابق، وهي أرملة، وزوجة عقيد أيضاً. وتقول العمة: «الآن عقيلتك تتردد عليها».

لن أطيل عليكم هذا الموضوع. لم يكلفني ذلك أكثر من ثلاثمائة روبل وخلال يومين اتفقنا على أن أقف في حجرة مجاورة، وراء باب، مغلق، وأستمع إلى أول *rendez – vous*[٩] بين زوجتي ويفيموفيتش. وفي الترقب حصل لي معها في العشية، مشهد قصير ولكنه جد مهم بالنسبة لي.

عادت قبيل المساء، وجلست على الفراش، تنظر إليّ باستهزاء، وتضرب البساط بقدمها. وفجأة، وأنا أنظر إليها، طافت في رأسي فكرة، وهي أنها في الشهر الأخير كله، أو، بالأحرى، خلال الأسبوعين الأخيرين، لم تكن على طبعها مطلقاً، بل ويمكن القول، على الضد من طبعها: كانت مخلوقاً معاركةً، مهاجماً، لا أستطيع أن أقول عديم الحياء، بل مضطرباً، يبحث بنفسه عن الشغب الذي يطمح فيه. إلا أن الوداعة كانت تعيق هذا المخلوق الداعي إلى الشغب. حين تأخذ مثل هذه العربدة، وإن خرجت عن الحد، فمن الواضح دائماً أنها لا تحطم إلا نفسها، ولا تطارد إلا نفسها، ولا شبيل إلى أن تكون البادئة في كبح نفسها بما لها من طهارة وحياء. ومن هنا يتجاوز هؤلاء الحد أحياناً أكثر من اللازم، حتى لا تصدق بعقلك المتتبع. بينما النفس المتعودة على الفسوق، على العكس من ذلك، تلين دائماً، وترتكب الأرذل من ذلك، ولكن في قالب النظام والحشمة بحيث يكون لها ادعاء التفوق عليكم.

– هل صحيح أنك طردت من الفوج لأنك جبنت ولم تخرج إلى مبارزة؟

---

٩. لقاء غرامي (بالفرنسية). الناشر.

سألت فجأة، وراحت عيناها تتألقان.

– صحيح. طلبوا إلي أن أترك الفوج بناء على قرار الضباط، رغم أنني قدمت استقالتي قبل هذا.

– طردوك كجبان؟

– نعم، حكموا علي كجبان. ولكنني امتنعت عن المبارزة لا عن جبن، ولكن عن رغبة مني في عدم الإذعان إلى قرار تسلكي، والدعوة إلى مبارزة في حين لم أجد أنا نفسي إساءة في الأمر. لعلمك – لم أتحمل حتى هنا – القيام بعمل مناهض للتسلط، وتحمل كل التبعات كان يعني إبداء شجاعة تفوق بكثير تلك التي من المطلوب إبداؤها في المبارزة.

لم أتحمل، وأطلقت هذه العبارة، وكأنني أبرر نفسي، وهذا ما كانت تريده بالذات، هذا الاستصغار الجديد لنفسي. فأنشأت تضحك في خبث.

– وهل صحيح أنك ظللت ثلاثة أعوام بعد ذلك تتسكع في شوارع بطرسبورغ كالمتشرد، وتسأل عشرة كوبيكات حسنة، وتنام تحت مناضد البليارد؟

– ونمت أيضاً في سينايا وفي دار فيازمسكي[١٠] أجل حقاً، كان في حياتي، بعد الفوج، الكثير من العار والسقوط، ولكنه ليس سقوطاً خلقياً، لأنني أنا نفسي أول من كره تصرفاتي، حتى في ذلك الحين. كان ذلك سقوطاً لإرادتي وعقلي فقط، و لم يكن إلا بسبب اليأس من وضعي. ولكن ذلك انقضى....

١٠. كانت دار فيازمسكي أحد مراكز "الترفيه" الرئيسية للفئات السفلى في العاصمة في ساحة "سينايا" القديمة – بؤرة الحانات والخمارات والأوكار الأخرى. الناشر.

– أوه، والآن أنت شخصية، مالي!

يعني أن ذلك تلميح بمكتب الرهونات. ولكنني استطعت أن أضبط نفسي. عرفت أنها تتعطش لإيضاحات مهينة لي، ولم أقدم لها. وفي تلك الأثناء دق راهن الجرس، فخرجت إلى القاعة للقياه. وبعد ساعة، حين لبست ثيابها فجأة لتخرج، توقفت أمامي وقالت:

– وعلى أية حال لم تقل لي شيئاً عن هذا قبل الزفاف؟

لم أجب، فخرجت.

وهكذا، وقفت، في اليوم التالي وراء الباب في تلك الحجرة، واستمعت كيف كان يتقرر مصيري، وكان في جيبي مسدس. كانت في ملابسها الجيدة، جالسة إلى المائدة. ويفيموفيتش يتثنى أمامها. طيب، حصل ما (أنا أقول ذلك شرفاً لي) حصل بالضبط، ما كنت أستشعره مسبقاً، وأتشوفه، رغم أنني لم أكن أعي بأنني أستشعر هذا واتشوفه. ولا أدري هل أعبر بشكل مفهوم.

وهذا الذي حصل. استمعت ساعة كاملة، وشهدت ساعة كاملة مبارزة امرأة غاية في النبل والسمو، مع بهيمة دنيوية فاسقة بليدة، مع زلحفة. وفكرت أنا المذهول، من أين تعرف هذه الساذجة، هذه الوديعة، هذه القليلة الكلام، كل هذا؟ أن أنبه مؤلف لكوميديا أرستقراطية ما كان في وسعه أن يخلق مثل هذا المشهد من السخريات والقهقهة الساذجة للغاية، وازدراء الفضيلة المقدس للرذيلة. وما أكثر ما كان في كلماتها، في ألفاظها الصغيرة من بريق، وأية حذاقة في أجوبتها السريعة، وأي صدق في استنكارها! وفي الوقت ذاته ما أكثر ما فيها صباوة وما يقرب من السذاجة. كانت تضحك في وجهه من مكاشفاته في الحب، من إيماءاته،

من عروضه. وهو الذي جاء مشمراً ذراعه لمراده، غير متوقع مقاومة، فانهار في بادئ الأمر. كان من الممكن أن أظن أن ذلك مجرد غنج من جانبها – «غنج مخلوق سريع البديهة، وإن كان خليعاً ليظهر نفسه أغلى». ولكن، لا، فالحقيقة أخذت تتألق، كالشمس، وكان من المستحيل الشك. ولكراهيتها لي فقط، لكراهيتها المصطنعة ذات السورات استطاعت، وهي العديمة التجربة، أن تقدم على تدبير هذا اللقاء، ولكن حين وصل الأمر إلى المراد منه، فتحت عينيها في الحال. مجرد أن هذا المخلوق اندفع ليهيننني بأي شيء كان، ولكنه، وقد أقدم على هذه القذارة، لم يتحمل فوضى. وهل كان في وسع يفيموفيتش أو مَن تشاؤون من البهائم الأرستقراطية أن يفتنها، وهي الطاهرة النقية ذات المثال؟ بالعكس، لم يثر فيها إلا الضحك. وصعدت الحقيقة كلها من روحها، وأثار الحنق في قلبها السخرية. وأكرر أن هذا المضحك قبيل الخاتمة ارتخى تماماً، وقعد جهم الأسارير، لا يكاد يرد، حتى أنني صرت أخشى أن يكون قد تجاسر وأهانها بانتقام وضيع. وأكرر مرة أخرى: شرفاً لي أن أكون قد استمعت لهذا المشهد بلا اندهاش تقريباً، وكأنني التقيت شيئاً مألوفاً لي. كأنني ذهبت لألتقيه. ذهبت غير مصدق بشيء، غير مصدق بأي اتهام، رغم أنني وضعت المسدس في جيبي. هذه حقيقة! وهل كان في وسعي حقاً أن أتصورها بغير هذه الصورة؟ لأي شيء إذن أحببتها، ولأي شيء قدرتها، ولأي شيء تزوجتها؟ بالطبع، كنت موقناً كثيراً بمقدار كراهيتها لي آنذاك، ولكن كنت موقناً أيضاً بمقدار طهارتها. أوقفت المشهد فجأة، حين فتحت الباب. وثب يفيموفيتش، فتناولت يدها، ودعوتها لأن تخرج معي. تدارك يفيموفيتش الموقف، وانفجر في ضحك رنان:

– أوه، أنا لا أعارض حقوق الزواج المقدسة، خذها! خذها! واعلم – صاح في أثري – لا يجوز لشخص معتبر أن يدخل في مبارزة معك، ومع

ذلك فأنا في خدمتك، احتراماً لعقيلتك... إذا كنت نفسك تجازف...

– اسمعي!

أوقفتها للحظة على العتبة.

وبعد ذلك لا كلمة واحدة طوال الطريق إلى البيت. قدتها من يدها، و لم تمانع. بل على العكس، كانت ذاهلة جداً، ولكن إلى حين وصولنا إلى البيت فقط. لمّا وصلت إلى البيت، جلست على مقعد، وثبتت فيّ بصرها. كانت ممتقعة للغاية، ورغم أن شفتيها انطبقتا في الحال انطباقة سخرية، إلا أنها كانت تنظر الآن بتحد منتصر صارم، وتبدو وكأنها قد أيقنت في اللحظات الأولى عن جد بأنني سأقتلها بالمسدس. إلا أنني أخرجت المسدس من جيبي صامتاً، ووضعته على الطاولة. نظرت إليّ وإلى المسدس (لاحظوا أن هذا المسدس كان معروفاً لها. وكنت قد اقتنيته، وعبأته منذ افتتاح المكتب. حين فتحت المكتب قررت ألا أتخذ كلاباً، ولا خادماً قوياً للحماية، مثلما يفعل موزر، مثلاً. طباختي هي التي تفتح الباب للزبائن، ولكن الذين يزاولون شغلتنا يستحيل عليهم أن يحرموا أنفسهم من الحماية الذاتية للطوارئ، فاتخذت مسدساً محشواً. ومنذ اليوم الأول الذي دخلت فيه بيتي اهتمت كثيراً بالمسدس، وراحت تستفسر، فأوضحت لها حتى تركيبه ونظام عمله، وفضلاً عن ذلك، أقنعتها مرة بأن تطلق النار على هدف. لاحظوا كل ذلك. استلقيت على السرير، وقد خلعت بعض ثيابي، دون أن أعير التفاتاً إلى نظرتها الهلعة. كنت خائر القوى جداً، وقد تجاوزت الساعة الحادية عشرة. ظلت جالسة على نفس المكان، زهاء ساعة أخرى، دون حراك. وبعد ذلك أطفأت الشمعة، واستلقت بملابسها أيضاً على الأريكة، عند الحائط. لأول مرة لم تنم معي. لاحظوا ذلك أيضاً.

6

ذكرى مرعبة

والآن هذه الذكرى المرعبة....

استيقظت صباحاً، بعد الساعة السابعة، على ما أظن، وكان جو الحجرة مستضاء كلياً تقريباً. استيقظت بوعي كامل دفعة واحدة، وفتحت عيني فجأة. كانت واقفة عند الطاولة، تمسك المسدس في يدها. لم تر أنني استيقظت، وأشاهد. فجأة أرى أنها تتحرك نحوي، والمسدس في يدها. أغمضت عيني سريعاً، وتظاهرت بأنني أغط في نوم عميق.

وصلت إلى الفراش، ووقفت فوقي. سمعت كل شيء، رغم أن سكون الأموات قد أطبق ولكني كنت أسمع هذا السكون. وهنا حصلت حركة متشنجة، وإذا بي لا أحتمل، فافتح عيني رغم إرادتي. كانت تنظر في عيني مباشرة، والمسدس صار عند صدغي تماماً. التقت عيوننا، ولكن لم ينظر أحدنا للآخر أكثر من لمحة. عدت فأغمضت عيني عنوة، وفي تلك اللمحة عزمت بكل ما في نفسي من قوة على أن لا أتململ بعد الآن، وأن لا أفتح عيني، مهما يكن في انتظاري.

يحدث في الواقع أن الإنسان النائم بشكل عميق يفتح عينيه فجأة، بل ويرفع رأسه للحظة، ويجيل بصره في الغرفة، ثم يضع رأسه على المخدة، بعد لحظة، ودون وعي منه، ويغفو دون أن يتذكر شيئاً. حين التقت نظراتنا، وأحسست بالمسدس على صدغي، عدت فأغمضت عيني فجأة، و لم

أتململ، كالنائم في نوم عميق حتى هيأت لها أن تفترض كلياً بأنني نائم بالفعل، وأنني لم أر شيئاً، والأكثر من ذلك من غير المحتمل كلياً أن يغمض المرء عينيه في مثل هذه اللحظة ثانية إذا كان قد رأى ما رأيت أنا.

نعم، من غير المحتمل. ولكنها من الممكن أيضاً أن تكون قد حدست الحقيقة على أية حال، وقد خطر ذلك في فكري فجأة، بنفس اللحظة أيضاً. أوه، ما أعنفها من الأفكار والأحاسيس انطلقت في أقل من لحظة في فكري. عاش جبروت الفكر الإنساني! وفي مثل هذه الحال (وقد أحسست ذلك) وإذا كانت قد حدست الحقيقة، وتعرف أنني غير نائم، فقد سحقتها باستعدادي لتقبل الموت، وقد ترتعش الآن يدها. وقد يحطم الانطباع الخارق الجديد تصميمها السابق. يقال أن الواقف على مرتفع يبدو وكأن قوة تجذبه إلى الأسفل، إلى الهاوية. وأظن أن الكثير من حالات الانتحار والقتل قد حصل، لأن المسدس كان في اليد. هنا أيضاً هاوية، هنا أيضاً انحدار بخمس وأربعين درجة، والانزلاق عليه لا مناص منه، وثمة شيء يدعوكم بشكل لا يقهر إلى إطلاق الزناد. ولكن الوعي بأنني رأيت كل شيء، وأعرف وأنتظر الموت منها صامتاً، استطاع أن يبقيها على المنحدر.

استمر السكون، وفجأة أحسست بملمس الحديد البارد على صدغي، على شعري. أنتم تسألون: هل كان أملي في الخلاص قوياً؟ أجيبكم، كما أمام الرب: لم يكن لي أيّ أمل، ما عدا واحداً بالمائة فقط من الحظ. فلماذا إذن، كنت أتقبل الموت؟ فأسأل: وأية حياة لي ستكون بعد أن رفع مخلوقي المعبود المسدس عليّ. وفضلاً عن ذلك كنت أعرف بملء قوة كياني أن صراعاً يجري بيننا في تلك اللحظة، مبارزة رهيبة على الحياة والموت، مبارزة الرجل الذي جبُن بالأمس، وطرده رفاقه على جبنه. كنت أعرف ذلك، وكانت هي أيضاً تعرف ذلك، شرط أن تكون قد حدست الحقيقة، وهي أنني غير نائم.

ربما لم يكن هذا أيضاً، ربما لم أفكر في هذا أيضاً آنذاك، ولكن كل هذا كا يجب أن يكون، ولو بدون تفكير، لأنني لم أفعل سوى أن أفكر في ذلك فيما بعد، في كل ساعة من حياتي.

ألا أنكم تطرحون سؤالاً آخر: ولكن لماذا لم تنقذها من الجريمة النكراء؟ أوه، ألف مرة طرحت على نفسي هذا السؤال فيما بعد، كلما تذكرت تلك اللحظة والبرودة تسري في ظهري. إلا أن روحي آنذاك كانت في قنوط قاتم. كنت أهلك، كنت أنا نفسي أهلك، فكيف كان في مقدوري أن أنقذ إنساناً؟ وما أدراكم هل كنت أريد أن أنقذ إنساناً آنذاك؟ وما أدراكم ماذا كان من الممكن أن أشعر آنذاك؟

ومع ذلك فالوعي كان يغلي. كانت الثواني تمر، والسكون سكون الموت، وهي ما تزال واقفة فوقي، وفجأة ارتعدت من الأمل! فتحت عيني سريعاً. لم تكن في الغرفة. نهضتُ من الفراش. لقد انتصرت، واندحرت هي إلى الأبد!

خرجت إلى السماور. كان السماور يهيأ في الغرفة الأولى دائماً، وكانت هي تصب الشاي في كل مرة. جلست إلى الطاولة صامتاً، وتناولت قدح الشاي منها. بعد حوالي خمس دقائق رمقتها بنظرة. كانت شاحبة بشكل فظيع، أكثر شحوباً من يوم أمس، وكانت تنظر إليّ. وفجأة، فجأة، وهي ترى أنني أنظر إليها، ابتسمت ابتسامة شاحبة، من شفتين شاحبتين، وفي عينيها سؤال متهيب. لا يعني ما تزال تشك وتسأل نفسها: « يعرف أم لا يعرف؟ رأى أم لم ير؟». حوّلت نظري عنها بعدم اكتراث. بعد الشاي أغلقت المكتب، وخرجت إلى السوق، واشتريت سريراً حديدياً وحاجزاً له. وعدت إلى البيت، وأمرت بأن يوضع السرير في القاعة، ويحجب بالحاجز. كان هذا السرير لها، ولكنني لم أقل لها أية كلمة، ومن خلال هذا السرير،

فهمت، دون كلام، أنني «رأيت كل شيء، وأعرف كل شيء». و لم تبق أية شكوك الآن. ولليل وضعت المسدس على الطاولة، كعادتي دائماً. في الليل أوت إلى هذا السرير صامتة. لقد فُسخ الزواج، «مدحورة، غير مغفور لها.» في الليل اعتراها هذيان، وعند الصباح حمى. ولزمت الفراش ستة أسابيع.

الفصل الثاني

1

حلم الإباء

وبسرعة صرّحت لوكيريا بأنها لن تبقى معي، وأنها ستغادر حالما تدفن السيدة. صلّيت راكعاً على ركبتي خمس دقائق، ولكن أردت أن أصلي ساعة، غير أنني أفكر وأفكر، وأفكاري موجهة كلها، ورأسي يوجعني، – وأية صلاة في مثل هذه الظروف؟ – وأنا ارتكبت الخطيئة! والغريب أيضاً أن النوم لا يراودني. والمرء دائماً يريد أن ينام عند الفاجعة الكبيرة، والكبيرة جداً، وبعد النوبات الأولى الشديدة للغاية. يقال إن المحكومين بالإعدام ينامون ليلتهم الأخيرة نوماً عميقاً بشكل استثنائي. وهذا ما ينبغي، هذا ما تمليه الطبيعة، وإلا لما تحملت قوى الإنسان.....استلقيت على الأريكة، ولكن لم أغفُ.....

.....أسابيع المرض الستة كنا نرعاها آنذاك ليلاً ونهاراً.

– أنا ولوكيريا، وممرضة متعلمة استأجرتها من المستشفى. لم أبخل بالفلوس، بل كنت أحب أن أصرف عليها. استدعيت شريدر طبيباً لها، ودفعت له عشرة روبلات لكل زيارة. وحين عادت إلى وعيها، أخذت أقلل من ظهوري أمام عينيها. على العموم ماذا أصف؟

– حين غادرت الفراش تماماً، جلست في هدوء وصمت في غرفتي، وراء طاولة خاصة، اشتريتها لها أيضاً في ذلك الوقت.....

أجل، صحيح أننا كنا نلزم الصمت التام، أقصد بل، أخذنا نتكلم

فيما بعد، ولو كان كلاماً اعتيادياً لا غير. تقصدت، بالطبع، ألا أفيض في الحديث، ولكنني لاحظت بشكل جيد جداً أنها تبدو كالمسرورة في ألا تقول كلمة زائدة. وبدا لي ذلك طبيعياً تماماً من جانبها. كنت أقول لنفسي: « إنها اهتاجت بشكل جاوز الحد، واندحرت بشكل جاوز الحد، فيجب، بالطبع، أن أدعها تنسي، وتتعود». وعلى هذا النحو لزمنا الصمت، ولكنني كنت في كل دقيقة أتهيأ للمستقبل مع نفسي. وكنت أظن أنها تفعل الشيء نفسه، وكان من الشائق جداً لي أن أحدس في أي شيء بالذات تفكر هي الآن مع نفسها؟

وأقول أيضاً، لا أحد، بالطبع، يدري كم تحملت، وأنا أتوجع عليها في مرضها. ولكن كنت أتوجع في داخلي، وقد حبست توجعاتي في صدري حتى عن لوكيريا. لم أكن أتصور، ولا حتى أن أخمن بأنها ستموت دون أن تعرف كل شيء. وحين اجتازت الخطر، وصارت عافيتها تعود إليها، أتذكر، أنني اطمأننت بسرعة وعلى نحو كبير. وفضلاً عن ذلك قررت تأجيل مستقبلنا أطول مدة ممكنة، وترك كل شيء الآن في وضعه الحالي. أجل، عندئذ حصل لي شيء غريب وفريد، ولا يمكن نعته بغير ذلك: انتصرت، وكان الوعي بذلك وحده يكفيني تماماً. وعلى هذا المنوال انقضى الشتاء. آه، لقد كنت مرتاحاً بشكل لا مثيل له، وذلك طوال الشتاء.

انظروا: كان في حياتي ظرف خارجي رهيب واحد كان يسحقني، في كل يوم، في كل ساعة، حتى ذلك الحين، أقصد حتى النكبة بزوجتي، وهو بالضبط خسران السمعة، وذلك الخروج من الفوج. بكلمتين اثنتين: كان هناك ظلم طاغ ضدي. حقاً إن الرفاق لك يكونوا يحبونني بسبب طبعي الصعب، ولربما، بسبب طبعي المضحك، رغم أنه غالباً ما يحدث أن السامي عندكم الحرز الحريز المبجّل من جانبكم يضحك، في الوقت

ذاته، جمهرة رفاقكم لسبب ما. نعم، لم أكن محبوباً قط، حتى حين كنت في المدرسة. لم أكن محبوباً دائماً وفي كل مكان. وحتى لوكيريا لا تستطيع أن تحبني. ورغم أن حادث الفوج كان نتيجة عدم الود نحوي، إلا أنه كان يحمل طابع المصادفة بدون شك. فضلاً عن ذلك فليس هناك شيء أكثر إهانة وأكثر إغاظة من أن أضيع سمعتي بسبب حادث من الممكن تجنبه، بسبب تراكم منحوس لظروف كان من الممكن أن تمر كما تمر السحب. شيء مهين بالنسبة لكائن مثقف. كان الحادث كالآتي:

في الاستراحة ما بين فصل وفصل في المسرح خرجت إلى المشرب. وإذا بضابط سلاح الفرسان أ– ف، يدخل ويقول بصوت عال لزميلين له وإمام الضباط والجمهور الذي كان هناك أن نقيب فوجنا بيزومتسف أثار ضجة في الممر منذ برهة، و«يبدو أنه سكران». لم ينعقد الحديث، كما كان هناك خطأ، إذ لم يكن النقيب بيزومتسف سكران، ولم يثر أية ضجة معينة. صار ضباط سلاح الفرسان يتحدثون عن شيء آخر، وبذلك انتهى الأمر. إلا أن هذه الحكاية تسربت إلى فوجنا في الغد، وصاروا يقولون عندنا في الحال أنني الوحيد الذي كنت في المشرب من بين الرفاق، وانني لو أوقف أ– ف بالفات تظر، حين تجاسر ضابط سلاح الفرسان فذكر النقيب بيزومتسف. ولكن بأي عرف؟ إذا كان يحمل ضغينة لبيزومتسف، فإن المسألة شخصية، فلماذا أدخل نفسي؟ ومع ذلك أخذ الضباط يجدون في هذه القضية شيئاً غير شخصي، بل يمس الفوج، ولما كنت الوحيد من ضباط فوجنا هناك، فإن ذلك يثبت لجميع الضباط والجمهور الذي كان موجوداً في المشرب على أن في فوجنا ضباطاً لا يهمهم كثيراً شرفهم ولا شرف فوجهم. وما كان من الممكن أن أوافق على هذا الحكم. اعلموني بأنه ما يزال في الإمكان تلافي كل شيء، إذا كنت أريد حتى وبهذه الصورة المتأخرة، أن أعلن

موقفي رسمياً مع أ – ف. و لم أرد ذلك. ولمّا كنت هائج الأعصاب، فقد رفضت بإباء. وبعدها قدمت استقالتي في الحال. وتلك عي الحكاية كلها. خرجت أبيّاً، ولكن محطم النفس، منهار الإرادة والعقل. وفي هذه الفترة بالذات علمت أن زوج أختي في موسكو بذّر ثروتنا الصغيرة، وحصتي القليلة منها، حصتي الضئيلة، وهكذا بقيت مفلساً وبلا عمل. كان في إمكاني أن أشتغل في خدمة خاصة، ولكن لم أفعل. فبعد البزة اللامعة ما كان في الإمكان أن أنخرط في مكان ما، في السكة الحديد. وذلك هو العيب بعينه، والعار بعينه، والسكوت بعينه، وكلما كان أسوأ كان أحسن، وهذا ما اخترته. تلك ثلاث سنوات من الذكريات القاتمة، بل ودار فيازيمسكي. قبل عام ونصف توفيت في موسكو عجوز غنية، هي أمي بالمعمودية، وبدون توقع تركت لي في وصيتها سوية مع الآخرين ثلاثة آلاف. فكرت في الأمر، وعندئذ قررت مصيري. عزمت على فتح مكتب الرهونات دون أن أطلب من الناس مغفرة: نقود، ثم ركن آوى إليه والحياة الجديدة بعيداً عن الذكريات الماضية – هذه هي الخطة. ومع ذلك فإن الماضي الكئيب، وسمعة شرفي المنهارة كانا يرهقانني كل ساعة، كل دقيقية. ولكنني تزوجت في تلك الآونة. مصادفة أم؟ لست أدري. ولكنني فكرت، وأنا أجيء بها إلى البيت، في أنني أجيء بصديق، فقد كنت بحاجة شديدة إلى صديق. ولكنني رأيت بجلاء أن الصديق يجب أن يُضرّ، يصنع صنعاً، بل ويُغلب غلباً. فهل كان في وسعي أن أوضح شيئاً بتلك العجالة لابنة السادسة عشرة، المتحاملة هذه؟ فمثلاً كيف كان في وسعي أن أقنعها بدون المساعدة العارضة التي قدمتها كارثة المسدس الرهيبة بأنني لست جباناً، وبان اتهامي في الفوج بالجبن ليس منصفاً؟ ولكن الكارثة جاءت في محلها. فقد انتقمت بصمودي أمام المسدس لكل ماضيّ الكالح. رغم أن أحداً لم يعرفف بذلك، إلا أنها عرفت هي، وكان هذا كل شيء بالنسبة لي، لأنها نفسها كانت كل شيء بالنسبة لي، كل

أمل مستقبلي في أحلامي! كانت الشخص الوحيد الذي أعددته بنفسي، وما كنت بحاجة إلى شخص آخر، وها هي قد عرفت كل شيء. عرفت، على أقل تقدير، انها تعجلت الانضمام إلى أعدائي عن غير وجه حق. هذه الفكرة تملكت إعجابي. في عينيها ما كان من الممكن أن أكون وغداً الآن، بل إنساناً غريب الأطوار لا غير، ولكن هذه الفكرة، بعد كل الذي حدث لم أعد أكرهه كلياً. غرابة الأطوار ليست رذيلة، بل بالعكس، تجذب الشخصية النسائية أحياناً. باختصار باعدت الخاتمة عن قصد، فإن ما حدث كان كافياً جداً لتهدئتي وكان يستخلص الكثير جداً من المشاهد والمادة لأحلامي. وفي ذلك السماجة، في نني حا لم. المادة كافية بالنسبة لي أما هي فلتكتف بما هو كوجود، كما كنت أظن.

وعلى هذا المنوال انقضى الشتاء، في انتظار شيء ما. كنت أحب اختلاس النظر إليها، حين كانت تجلس، أحياناً، وراء منضدتها. كانت تمارس عملاً، تشتغل بالبياضات، وفي الأمسيات كانت تطالع أحياناً الكتب التي كانت تأخذها من دولابي. إن اختيار الكتب الموجودة في الدولاب كان يجب أن يكون أيضاً شاهداً لصالحي. لم تكن تخرج تقريباً إلى أي مكان. وقبيل حلول المساء، بعد العشاء، كنت أخرج بها كل يوم للنزهة، كنا نقوم بالتريّض، ولكن ليس بصمت تام، كما من قبل. كنت أجاهد بالذات لنبدو غير صامتين، بل نتكلم بوئام، ولكن، كما قلت سابقاً، عملنا نحن الاثنين على أن لا نفيض في الحديث. كنت أنا أفعل ذلك عن عمد، «لأعطيها الوقت» كما ظننت. ومن الغريب، طبعاً، ألا أفكر ولا مرة واحدة، طوال الشتاء، في أنني أهوى اختلاس النظر إليها، بينما لم التقط أية نظرة موجهة لي طوال الشتاء. فكرت أن ذلك عن استحياء. وبالإضافة إلى ذلك كانت تتخذ هيئة الوادعة المستحية، والعجز والمرض. لا، من الأفضل الانتظار، «وستتقرب إليك نفسها على حين غرة...».

تملكت هذه الفكرة إعجابي بشكل لا يقهر. وأضيف شيئاً واحداً: أحياناً كنت كمن يحرق نفسه متعمداً، وبالفعل أدفع روحي وعقلي إلى حد الاستياء منها، على ما يبدو. واستمرت هذه الحال بعض الوقت. ولكن كراهيتي ما كان من الممكن قط أن تنضج وتستحكم في روحي. نعم، أنا نفسي كنت أشعر بأن ذلك يبدو مجرد لعبة. ولكنني آنذاك ما كان من الممكن أن أرى فيها مجرمة، رغم أنني فسخت الزواج عن طريق اشتراء السرير والحاجز له. وليس ذلك لأنني كنت أنظر إلى جريمتها بعدم اكتراث، بل لأنني كنت أنوي الصفح عنها تماماً، منذ اليوم الأول، حتى قبل أن أشتري السرير. وباختصار، هذه غرابة أطوار من جانبي، لأنني صارم خلقياً. بالعكس من ذلك كانت في عينيّ مندحرة، ومهانة، ومسحوقة إلى حد جعلني أشفق عليها بعذاب أحياناً، إلا أن فكرة إهانتها كانت تروق جداً لي أحياناً، رغم كل ذلك. فكرة هذا الفارق بيننا كانت تروق لي.....

في ذلك الشتاء حدث أن قمت ببعض الأعمال الخيّرة متعمداً. عفوت عن ديني وقدمت الفلوس لامرأة مسكينة بدون رهن. و لم أقل، لم أقل شيئاً عن ذلك، وعلى العموم لم أقم بذلك قط لكي تعرف هي، إلا أن المرأة جاءت من تلقاء نفسها لتشكر، وكادت تركع على ركبتيها. وبهذه الطريقة انكشف الأمر، كان يبدو لي أنها ارتاحت، حين عرفت بخصوص المرأة.

ولكن الربيع قد تقدم، وكان نيسان في منتصفه، وأنزلنا النوافذ الشتائية المزدوجة، وصارت الشمس تضيء بأشعتها الساطعة غرفتينا الصامتتين. إلا أن نقاباً كان ينسدل أمامي، ويعمي عقلي. نقاب مشؤوم رهيب! كيف حصل أن سقط كل ذلك من عيني فجأة، وأبصرت فجأة، وأدركت

كل شيء. هل كان ذلك مصادفة، أن يكون النهار موقّتاً، وأن تحرق أشعة الشمس الفكرة والحدس في عقلي المتراخي. لا، لم تكن هناك فكرة، ولا حدس. بل نبض هاجس كان من قبل مشلولاً، واهتز وانبعث، وأضاء كل روحي الخاملة، وإبائي الإبليسي. عندها قفزت من مكاني فجأة. نعم، لقد حصل ذلك فجأة وبشكل مباغت. حصل ذلك قبيل المساء، في الساعة الخامسة، بعد الغداء.

2

سقط النقاب فجأة

لأقل كلمتين قبل هذا. منذ شهر لاحظت عليها سهوماً غريباً، ليس صمتاً، بل سهوماً. وقد لاحظت هذا أيضاً فجأة. كانت، عندئذ، جالسة إلى عملها، محنية الرأس على الخياطة، فلم تكن ترى أنني أنظر إليها. وفجأة أذهلني أيضاً أنها أضحت نحيفة هزيلة، ووجهها شاحب، وشفتاها مبيضتان. كل ذلك سوية مع سهومها صعقني دفعة واحدة، وبشكل لا حد له. وكنت من قبل قد سمعت سعالاً جافاً خافتاً، في الليالي بشكل خاص، نهضت في الحال، وذهبت لاستدعاء شريدر دون أن أقول لها شيئاً.

جاء شريدر في اليوم التالي. وقد اندهشتْ كثيراً، وراحت تنقل بصرها بيني وبينه.

– ولكنني في صحة.

قالت، وابتسمت ابتسامة مقتضبة غير محددة. لم يفحصها شريدر بشكل جيد (هؤلاء المطببون مهملون أحياناً باستعلاء)، قال لي فقط، في الغرفة المجاورة، إن ذلك من عقابيل المرض، ومن المستحسن السفر إلى البحر مع حلول الربيع، أو الانتقال إلى بيت ريفي خارج المدينة، إذا تعذر السفر. وباختصار لم يقل أكثر من أن فيها ضعفاً، أو شيئاً من هذا القبيل. وحين غادر شريدر قالت لي فجأة، وهي تنظر إليّ تلك النظرة الجدية للغاية:

– أنا في صحة تامة.

إلا أنها احمرّت بغتة، بعد أن قالت ذلك، من الخجل، في الظاهر. كان ذلك خجلاً، في الظاهر. آها، الآن أفهم: كانت تخجل من أنني، وأنا زوجها، أهتم بها وكأنني ما أزال زوجاً حقيقياً. ولكنني لم أفهم عندئذ، واعتبرت الاحمرار وداعة (نقاب!).

وبعد شهر من هذا، في الساعة الخامسة، في نيسان، في يوم مشمس ساطع، كنت جالساً قرب الخزنة، أسجل الحسابات. وفجأة أسمعها..... تغني.....بخفوت.....في غرفتنا، وهي وراء الطاولة، أثناء العمل. هذه البدعة الجديدة خلّفت في نفسي انطباعاً عاصفاً، وأنا لحد الآن لا أفهمه. حتى ذلك الحين لم أسمعها مغنية، على الإطلاق تقريباً، إلا في الأيام الأولى، حين جئت بها إلى البيت، وحين ما زلنا نستطيع أن نمرح ونعبث، ونحن نطلق النار من المسدس إلى الهدف. آنذاك كان صوتها ما يزال قوياً رناناً بما فيه الكفاية، ولو أنه متعكر، ولكنه لطيف بشكل رائع، وينم عن صحة. أما الآن، فقد كانت الأغنية هزيلة جداً، وليست شجية (كانت أغنية عاطفية)، ولكن بدا وكأن في الصوت شيئاً مثلوماً محطماً، كأن الصوت لا يستطيع أن يستقيم، كأن الأغنية نفسها سقيمة. كانت تغني بصوت خافت، وفجأة استقام الصوت، وانقطع في الحال، ذلك الصوت الخافت المسكين انقطع

بشكل يرثى له. سعلت ما في صدرها، وعادت تغني بهدوء هادئ، قطرة قطرة...

الناس تضحك من انفعالاتي، ولكن لا أحد يفهم أبداً لماذا كنت أنفعل! لا، إن ذلك لم يكن يعد رثاء لها، بل شيئاً آخر مختلفاً تماماً. في البداية، في الدقائق الأولى، على الأقل، نشأت حيرة فجأة، واندهاش رهيب، رهيب وغريب ومعتل، وانتقامي تقريباً: «تغني في وجودي أيضاً! فهل نسيتني؟».

بقيت في مكاني مصعوقاً كلياً، ثم نهضت فجأة، وتناولت قبعتي، وخرجت، وكأنني لا أعي. على الأقل لا أعرف لماذا وإلى أين. أخذت لوكيريا تلبسني المعطف.

– إنها تغني؟

قلت للوكيريا بدون إرادتي. لم تفهم هذه، ونظرت إليّ وهي ماضية في عدم فهمها. بالمنابة كنت غير مفهوم بالفعل.

–إنها تغني لأول مرة؟

– لا، تغني في غيابك أحياناً. – ردّت لوكيريا. وأتذكر كل شيء. هبطت السلم، وخرجت إلى الشارع، وسرت إلى حيث لا أدري. وصلت إلى العطفة، وأخذت أنظر إلى هناك. كان الناس يمرون، ويدفعونني، و لم أشعر بذلك. ناديت على حوذى، واستأجرته ليذهب بي إلى جسر بوليتسيسكي لسبب لا أعرفه. ولكنني عدلت فجأة، وأعطيته عشرين كوبيكا.

– هذه لأنني أزعجتك.

قلت ضاحكاً بلا معنى، ولكن بهجة أطلت على قلبي فجأة.

عدت إلى بيتي، مسرعاً خطاي. ولكن النغم المثلوم البائس، الذي انقطع عاد يرن في روحي ثانية. احتبست أنفاسي. لقد سقط، سقط النقاب من عيني. فإذا كانت قد غنت بحضوري، فقد نسيتني، – هذا ما كان واضحاً ورهيباً. هذا ما شعر به قلبي. ولكن الغبطة ظلت تشع في روحي، وتتغلب على الرعب.

إيه، يا سخرية القدر! لم يكن في نفسي غير هذه الغبطة، وما كان من الممكن أن يكون، طوال الشتاء، ولكن أنا نفسي، أين كنت طوال الشتاء؟ هل كنت مع نفسي؟ ركضت على السلم بسرعة شديدة، ودخلت ربما على استحياء. أتذكر فقط أن الأرض كلها بدت وكأنها تتماوج، وأنا كمن يعوم على نهر. دخلت إلى الحجرة، وكانت هي جالسة في مكانها السابق، تخيط، حانية رأسها، ولكنها كفت عن الغناء. ألقت عليّ نظرة سريعة ولا اهتمام فيها، ولكنها لم تكن نظرة، بل لمحة، اعتيادية وغير مكترثة، حين يدخل أحد الغرفة.

تقدمت منها رأساً، وجلست على كرسي لصقها، كالمخبول. نظرت إليّ بسرعة، كالمذعورة، تناولت يدها، ولا أتذكر ما قلت لها، أقصد ما أردت أن أقول، لأنني لم أستطع حتى أن أتكلم بشكل صحيح. تقطع صوتي، و لم يُسمع. ثم إنني لم أكن أعرف ماذا أقول، فلهثت أنفاسي لا غير.

– لنتحدث.....تعرفين.....قولي شيئاً! – فجأة تأتأت بشيء أبله. أوه، هل كنت فارغاً لذلك؟ ارتعدت مرة أخرى، وتراجعت في فزع شديد، وهي تتطلع إلى وجهي، ولكن اندهاشاً صارماً تراءى في عينيها فجأة. أجل، اندهاش، وصارم أيضاً. تطلعت إليّ بعينيها الوسيعتين. إن تلك الصرامة، ذلك الاندهاش الصارم، قد هشماني تماماً. «ما تزال تريد

حباً؟ حباً؟». كأن هذا الاندهاش كان ينطق بذلك، رغم أنها كانت صامتة. ولكن كنت أقرأ كل شيء، كل شيء. اهتزّ كل شيء فيّ، فتهاويت على قدميها. أجل، سقطت على قدميها. وثبت بسلرعة، ولكنني أمسكتها من كلتا يديها بقوة خارقة.

كنت أعي كل يأسي تماماً. نعم، أعيه! ولكن هل تصدقونني لو قلت لكم أن الغبطة كانت تتأجج في قلبي بشكل لا يكبح، حتى ظننت أنني سأموت. قبّلت قدميها في نشوة وسعادة. أجل، في سعادة لا حدّ لها ولا نهاية، وذلك مع إدراكي لكامل يأسي الخالي من كل رجاء! كنت أبكي، وأقول شيئاً، ولكن لم أكن قادراً على أن أقول. وانزاح الذعر والاندهاش ليحل محله تفكير مفهوم، وتساؤل فوق العادة، فنظرت إليّ بغرابة، بل وبوحشية، أرادت أن تفهم شيئاً بأقرب وقت، وابتسمت. أحست بخجل مريع من تقبيلي لقدميها، فأبعدتهما عني، ولكنني عدت فقبلت الأرض التي كانت قدمها تقف عليها. رأت ذلك، وراحت تضحك فجأة من الخجل (تعرفون حين يضحك الناس من الخجل). وجاءت الهستيريا، وقد رأيتها، كانت يداها ترتعشان، و لم أفكر في ذلك، وظللت أتمتم لها أنني أحبها، وأنني لن أنهض «دعيني أقبل ثوبك....فسأصلي لك طول عمري...». لا أعرف، لا أتذكر، فجأة أخذت تعول، وتهتز، وحلت نوبة الهستيريا الرهيبة. لقد أفزعتها.

نقلتها إلى السرير. وحين انتهت النوبة، جلست على السرير، وأمسكت يديّ بهيئة منْ أضني كلياً، ورجتني أن أهدأ. «كفاك، لا تعذب نفسك، اهدأ!». وطفقت تبكي مرة أخرى. لم أبتعد عنها طوال ذلك المساء. ظللت أقول لها سأسافر معها إلى بولون[11] لتستحم في البحر، سنسافر

١١. بولون سور مير: ميناء فرنسي على ساحل المانش مشهور أيضاً كمنتجع بحري. كان

حالاً، خلال أسبوعين، وإن لها صوتاً مثلوماً، سمعته قبل حين، وإنني سأغلق المكتب، أبيعه لدوبرونرافوف، وأبدأ كل شيء من جديد، والأهم السفر إلى بولون، بولون! استمعت، وظلت على خوفها! وظل خوفها يزداد أكثر فأكثر. ولكن ليس هذا المهم بالنسبة لي، بل رغبتي التي كانت تزداد شدة وتشبثاً في أن أتمدد مرة أخرى عند قدميها، وأقبل مرة أخرى، أقبل الأرض التي تقف عليها قدماها، وأصلي لها «ولا أرجو منك شيئاً آخر – كنت أكرر كل لحظة – لا تردى عليّ بشيء، ولا تلتفتي إليّ مطلقاً، دعيني فقط أن أنظر إليك من زاوية، واجعليني شيئاً لك، كلباً صغيراً...». كانت تبكي.

– ظننت أنك ستتركني على حالي! – أفلت منها فجأة دون إرادتها، حتى لمن الممكن ألا تكون قد فطنت إلى ما قالته، وفي نفس الوقت كان هذا، بالنسبة لي، أهمّ وأنحس كلمة لها، أكثرها فهماً، بالنسبة لي، في ذلك المساء، وكأنما طعنت قلبي يسكين! شرحت لي هذه الجملة كل شيء، كل شيء، ولكن الوديعة طوال ما كانت بالقرب مني، أمام بصري، كنت آمل بشكل لا يكبح، وكنت سعيداً إلى حد رهيب. آه، لقد أضنيتها بفظاعة في ذلك المساء، وكنت أفهم ذلك، ولكن كنت أفكر بلا انقطاع في أنني سأغير كل شيء في هذه اللحظة. وأخيراً، ومع قدوم الليل، خارت قواها تماماً، فأقنعتها بأن تغفو، وغفت في الحال في نوم عميق. انتظرت هذياناً، وقد كان بالفعل، ولكنه أخف هذيان. كنت أنهض في الليل كل دقيقة تقريباً، وأتقدم منها بحذر وفي خفّي البيتي لأنظر إليها. تفجعت عليها، وأنا أنظر إليها، إلى هذه المخلوقة العليلة على السرير البائس، الحديدي، الذي كنت قد اشتريته في حيته بثلاثة روبلات. ركعت على ركبتي،

دوستويفسكي فيه حزيران – تموز ١٨٦٢ في طريقه إلى إنجلترا والعودة منها، وبهذا تفسر إشارته إلى بولون في "الوديعة". الناشر.

ولكن لم أجرؤ على تقبيل قدميها، وهي نائمة (دون رغبتها!). كنت أركع لأصلي للرب، ثم أعود فأثب من جديد. وكانت لوكيريا تتطلّع إليّ، وتخرج من المطبخ طوال الوقت. خرجت إليها، وقلت لها أن تأوي إلى فراشها، وفي الغد سنبدأ «بشيء مختلف تماماً».

وكنت أؤمن بذلك بعمى وجنزن وشراهة. آه، كانت الغبطة، الغبطة تغمرني: كنت أنتظر يوم غد فقط. والشيء الرئيسي أنني لم أكن أصدق بأية فاجعة ستحل، رغم أعراضها. لم يكن الإدراك قد عاد إليّ كلياً، رغك سقوط النقاب، وظل غائباً وقتاً طويلاً جداً، أوه، حتى اليوم، حتى اليوم ذاته!! ثم كيف كان يمكن أن يعود آنذاك. فقد كانت ما تزال حيّة، وكانت هنا، أمامي، وأنا أمامها: « ستستيقظ غداً، وسأقول لها كل ذلك، وتدرك كل ذلك». ذلك هو تفكيري، آنذاك، ببساطة ووضوح، ومن هنا جاءت الغبطة! والشيء الرئيسي هنا، هو الرحلة إلى بولون. لا أدري لماذا كنت أظن أن بولون هي كل شيء، وفي بولون يتركز كل شيء. «إلى بولون، إلى بولون!» وانتظرت الصباح بجنون.

3

لفهم الغاية

ولكن كل هذا كان قبل بضعة فقط، خمسة أيام، قبل خمسة أيام فقط. في يوم الثلاثاء الماضي! أوه، لو كانت هناك فسحة قليلة أخرى من الوقت، لو كانت قد انتظرت هنيهة، لبددت الغمة! ألم تهدأ حقاً؟ في اليوم التالي استمعت إليّ مبتسمة، رغم ارتباكها....المهم أن الارتباك أو الخجل كانا

طوال تلك المدة، طوال الخمسة أيام. كانت خائفة أيضاً، خائفة كثيراً. أنا لن أجادل، لن أعترض كالمعتوه: لقد كان رعباً، ولكن كيف كان يمكن ألا تخاف؟ ذلك لأننا صرنا غريبين منذ زمان، انفصم أحدنا عن الآخر، وفجأة يحدث كل هذا....ولكنني لم ألتفت إلى رعبها. كان شيء جديد يشع!.... الحقيقة، الحقيقة التي لا يعتريها الشك، أنني ارتكبت خطأ. بل ولربما أخطاء كثيرة. حالما استيقظت في اليوم التالي، حتى منذ الصباح (كان ذلك في يوم الأربعاء) أقدمت على خطأ، على الفور. جعلتها صديقتي فجأة. استعجلت، جداً، جداً، ولكن الاعتراف كان لازماً، ضرورياً. بل أكثر من الاعتراف! بل لم أخف حتى ما كنت أخفيه عن نفسي طوال حياتي. أعلنت بصراحة أنني طوال الشتاء لم أكف قط عن الوثوق بأنها تحبني. أوضحت لها أن مكتب الرهونات لم يكن إلا سقوط إرادتي وعقلي وفكرتي الشخصية عن إيلام النفس وإطراء الذات. وأفهمتها أنني في حادثة المشرب قد جبنت بالفعل، من جراء طبعي، من جراء الوسوسة. بهرني الموقف، بهرني المشرب، بهرني كيف أخرج بغتة، وهل سيبدو ذلك حماقة...وفيما بعد لم أرد أن أعترف، وعذّبت الجميع، وعذبتها هي أيضاً بذلك، وتزوجتها، لأعذبها بذلك. وبشكل عام كنت أتحدث معظم الوقت وكأنني في هذيان حمى. هي التي أمسكت يدي، ورجتني أن أكف: « أنت تبالغ....أنت تعذب نفسك» ومرة أخرى بدأت الدموع، ومرة أخرى أوشكت نوبة أن تحل!

كانت ترجوني طوال الوقت ألا أتحدث ولا أتذكر شيئاً من هذا.

لم أنظر إلى رجائها، أو قلّ ما نظرت إليه: الربيع، بولون! وهناك الشمس، هناك شمسنا الجديدة. كنت لا أتحدث إلا في هذا! أغلقت مكتب الرهوناتا، وسلّمت الأمر إلى دوبرونرافوف. واقترحت عليها، فجأة، بأن نوزع كل شيء للمساكين، ما عدا الآلاف الثلاثة التي حصلت

عليها من أمي بالمعمودية، والتي كان من الممكن أن نسافر لها إلى بولون، نعود بعد ذلك، ونبدأ حياة عمل جديدة. وهذا ما عزمنا عليه، لأنها لم تقل شيئاً....ابتسمت فقط. ويبدو أنها ابتسمت مجاملة، بالأحرى، حتى لا تغمني. فقد رأيتها متضايقة مني، ولا تظنوا أنني من البلاهة والأنانية بحيث لم أر هذا الضيق عليها. كنت أرى كل شيء، كل شيء حتى آخر الدقائق، كنت أرى وأعرف أحسن من الجميع. لقد كانت كل استماتتي ظاهرة للعيان!

حكيت لها كل شيء عني وعنها. وعن لوكيريا أيضاً. كنت أقول لها أنني بكيت....آوه، كنت أحوّر بالكلام، بل وأجاهد أن أتحاشى كلياً ذكر بعض الأشياء. بل وانتعشت، مرة أو مرتين، أنا أتذكر، أتذكر! لماذا تقولون كنت تنظر، ولا ترى شيئاً؟ ولو لم يحدث هذا، لبُعث كل شيء حياً. ذلك لأنها كانت تحكي لي، منذ يومين، حين تطرق الحديث إلى المطالعة، وإلى ما قرأته في ذلك الشتاء، كانت تحكي، وتضحك، حين تذكرت ذلك المشهد حين يلتقي جيل بلاز مع رئيس أساقفة غرناطة[١٢]. وأي ضحك طفولي عذب، مثل ضحكها من قبل عندما كانت عروساً، (لمحة! لمحة!) وكم كنت مسروراً! بهرني ذلك بشكل فظيع، وبخصوص رئيس الأساقفة، بالمناسبة. يعني كان لها من طمأنينة النفس والسعادة، بحيث استطاعت أن تضحك من هذه الدُرة، حين كانت جالسة في الشتاء. يعني أخذت تهدأ تماماً، وأخذت تصدق تماماً، بأنني تركتها على حالها....« ظننت أنك ستتركني ملى حالي». هذا ما نطقت به آنذاك، يوم الثلاثاء! أوه، إنه تفكير بنت في العاشرة! كانت تصدق، تصدق، بأن كل شيء سيبقى على حاله حقاً: هي وراء منضدتها، وأنا وراء منضدتي، وكلانا على هذه الحال،

١٢. من رواية الكاتب الفرنسي أ. د. ليساج (١٦٦٨ – ١٧٤٧) "تاريخ جيل بلاز دو سانت ليان"، وكان دوستويفسكي يقدرها كثيراً. الناشر.

حتى سن الستين. وفجأة أدنو منها، أنا الزوج، والزوج بحاجة إلى حب! آه، يا للالتباس، يا لعماي!

كان خطأ أيضاً أن أنظر إليها بغبطة، بل كان يجب أن أضبط مشاعري، وإلا فإن الغبطة قد أرعبتها. ولكنني قد ضبطت مشاعري، بالفعل، فلم أقبل قدميها مرة أخرى. لم أُبدِ أية إشارة إلى أنني..... طيب، إلى أنني زوج،، آه، لم يكن ذلك في ذهني، كنت أصلي فقط! ولكن كان من المستحيل السكوت تماماً، من المستحيل الكف تماماً عن الكلام! أعلنت لها فجأة أنني أتلذذ بحديثها، وأعتبرها أثقف وأكثر تطوراً مني بما لا يقاس، بما لا يقاس. احمرّت كثيراً، وارتبكت، وقالت: أنت تبالغ. وهنا، لحماقتي، لم أضبط نفسي، وقلت لها كم كنت مغتبطاً، وأنا أستمع إلى مبارزتها، حين كنت واقفاً وراء الباب، مبارزة البريئة مع تلك البهيمة، وكيف تلذذت بعقلها، ولمعان بديهيتها، إلى جانب تلك البساطة الطفولية. وبدا وكأنها ارتعدت بكل كيانها، وتأتأت مرة أخرى بأنني أبالغ، ولكن وجهها كله قد اربدّ فجأة، فغطته بيديها، وأجهشت باكية.....وهنا لم أتحمل. ارتميت مرة أخرى أمامها، وأخذت مرة أخرى أقبّل قدميها، ومرة أخرى انتهى ذلك بنوبة، كتلك التي كانت يوم الثلاثاء. حدث ذلك يوم أمس، مساء، وفي صباح اليوم التالي...

صباح اليوم التالي؟! معتوه، هذا الصباح كان اليوم، قبل حين، قبل حين فقط!

اسمعوا، واستوعبوا: حين نزلنا، قبل حين، إلى السماور (هذا بعد نوبة يوم أمس) بهرتني، هي نفسها، بهدوئها، هذا ما حصل! بينما كنت أنا، طوال الليل، أرتعد من الفزع على ما حدث بالأمس.

ولكنها تقترب مني فجأة، وتقف قبالتي تماماً، وتطوي ذراعيها (قبل حين، قبل حين!) فتقول لي أنها مجرمة، وأنها تعرف ذاك، وأن جريمتها عذبتها طوال الشتاء، وتعذبها الآن أيضاً.....وأنها تقدر كثيراً شهامتي.....«سأكون زوجتك الوفية، سأحترمك...». وهنا وثبت من مكاني، وطوقتها كالمجنون! قبلتها، قبلت وجهها، وشفتيها، كما يفعل الزوج، لأول مرة، بعد فراق طويل. وبعد ذلك، قبل حين فقط، خرجت، لساعتين لا غير....جوازا سفرنا...أوه، يا ربي! فقط لو رجعت قبل خمس دقائق، قبل خمس دقائق، قبل خمس دقائق لا أكثر؟.....وهذا الحشد عند بابنا الخارجي، تلك النظرات نحوي....

أوه، يا إلهي! تقول لوكيريا (لن أترك لوكيريا الآن مهما كلف الأمر، فهي تعرف كل شيء، كانت معنا طوال الشتاء، وستقص عليّ كل شيء) تقول عندما خرجت أنا من البيت، وقبل مجيئي بحوالي عشرين دقيقة، دخلت هي فجأة غرفة السيدة، غرفتنا، لتطلب شيئاً، لا أتذكر، فرأت أيقونتها (نفس أيقونة العذراء تلك) قد أُخرجت من مكانها، وهي أمامها على الطاولة، وبدت السيدة، وكأنها قد فرغت من الصلاة لتوها. قالت لوكيريا: «ماذا بك، يا سيدتي؟» — «لا شيء، يا لوكيريا، أخرجي، قفي، لوكيريا». دنت منها وقبلتها. وقالت لها لوكيريا: «هل أنت سعيدة، يا سيدتي؟» — «نعم، يا لوكيريا». — «كان على السيد أن يأتي إليك، منذ زمان، ليسألك الصفح، يا سيدتي...حمداً للرب، على أنكما تصالحتما». فتقول: «طيب، يا لوكيريا، اذهبي،لوكيريا». وابتسمت بشكل، بشكل فيه غرابة شديدة، حتى أن لوكيريا عادت بعد زهاء عشر دقائق، لتتفقدها: «إنها تقف قرب الحائط، عند النافذة تماماً، وقد وضعتْ يدها على الحائط، وألقت على يدها رأسها، وتقف على هذا النحو تفكر. تقف مستغرقة بالتفكير، حتى أنها لم تفطن

إليّ وأنـا أقف وأنظر إليها مـن تلك الغرفة. وأرى وكأنها تبتسم، تقف مفكرة تبتسم. نظرت إليها، واستدارت بهدوء، وخرجت، وأنا أفكر مع نفسي، وإذا بي أسمع فجأة: فتحوا النافذة. ذهبت في الحال لأقول: «بـرودة، يا سيدتي، أخشى أن تصابي ببرد». وإذا بي أراها واقفة على النافـذة، بكل قامتهـا، والنافذة مفتوحة، وظهرهـا إليّ، والإيقونة في يدهـا. وهنا هبط قلبي، وأصرخ: «سيدتي، سيدتي!» سمعت صوتي، وتحركـت لتستدير نحوي، ولكنهـا لم تستدر، ضاغطـة الأيقونة إلى صدرها و رمت نفسها من النافذة أتذكر فقط أنني حين دخلت الباب الخارجي، كانت ما تزال دافئة، والشيء المهم أنهم جميعاً ينظرون إليّ. في بـادئ الأمر صاح الناس، ثم سكتوا فجأة، وإذا بهم يتنحون أمامي و...وهي منطرحة ومعها الأيقونة. أتذكر، بشكل مبهم، كيف دنوت منهـا صامتـاً، ونظرت اليها طويـلاً، والناس التفوا حـولي، ويقولون شيئاً.لوكيريـا كانـت هنا، ولكننـي لم أرها. وتقـول الآن انها كانت تتكلم معي. أتذكر فقط ذلك الرجل من أهل المدينة. ظل يصرخ «حفنة مـن الدم خرجت من حلقها، حفنـة، حفنة!.....» وأراني الدم على الحجر. يظهر أننـي مسست الدم بإصبعي، فتلطخت إصبعي، وأعاين الإصبع (أتذكر هذا)، بينما الرجل ما يزال يصرخ «حفنة، حفنة!»

ولكن ما هذه الحفنة؟

زعقت به بكل قوتي، ويقال أنني رفعت يديّ وارتميت عليه...

أوه، وحشيـة، وحشيـة! التباس! شـيء لا يشبـه الحقيقـة! شيء مستحيل!

4

لم أتأخر غير خمس دقائق

أليس كذلك حقاً؟ أهذا ما يشبه الحقيقة حقاً؟ وهل في الإمكان حقاً القول بأن ذلك ممكن؟ لماذا، لأي شيء ماتت هذه المرأة؟

أوه، صدقوني، أنا أفهم. ولكن لأي شيء ماتت. ذلك سؤال، على أية حال. فزعت من حبي، وساءلت نفسها عن جد: هل تتقبل أم لا تتقبل. و لم تتحمل السؤال، وفضلت أن تموت. أعرف، ولا حاجة إلى دواخ الرأس: أغدقت الوعود كثيرة، وفزعت من أنها لا تستطيع الوفاء بها. ذلك واضح. هنا بعض الظروف المريعة للغاية.

فلأي شيء ماتت، إذن؟ ما يزال السال قائماً، على أية حال. السؤال يدق، السؤال يدق في دماغي. كان من الممكن أن أتركها على حالها، إذا كانت راغبة في أن تبقى على حالها. و لم تكن تصدق بذلك. تلك هي المسألة! لا، لا، أنا أكذب. ليست هذه المسألة على الإطلاق. بل لمجرد أنها كان يجب أن تحبني بنزاهة، أن تحبني تمام الحب، لا كما لو كانت ستحب التاجر. ولما كانت أطهر وأنقى من أن توافق على مثل هذا الحب الذي يجب أن يوهب للتاجر لم ترد أن تخدعني. لم ترد أن تخدعني بنصف حب، بربع حب، وبدعوى أنه حب. فيا لنزاهتها هذه! أردت أن أغرس في نفسها رحابة القلب. هل تذكرون؟ تفكير غريب

إني لأتعجب كثيراً: هل كانت تحترمني؟ لا أدري، هل كانت تحترمني؟ لا أدري، هل كانت تحتقرني أم لا؟ لا أظن أنها كانت تحتقرني.

يحملوها، وأنا لست مجنوناً، ولا أهذي على الإطلاق، بل بالعكس، لم يتألق عقلي هذا التألق قط، ولكن كيف أن يخلو البيت من إنسان، وتعود الغرفتان، كما كانتا، وأنا وحدي مع الرهونات. هذيان، هذيان، هذا هو الهذيان! أنهكتها، تلك هي المسألة!

ما حاجتي إلى قوانينكم؟ ما شأني بعاداتكم، وأخلاقياتكم، وحياتكم، ودولتكم، ومعتقدكم؟ ليحاكمني قاضيكم، ليقدموني إلى المحكمة، إلى محكمتكم العلنية، وسأعلن بأنني لن أعترف بأي شيء. وسيصرخ القاضي «أسكت، أيها الضابط!» وسأصرخ به: «من أين لك الآن القوة على الانصياع إليها؟ ولماذا حطم الجمود الظلامي أعز شيء؟ وما حاجتي الآن بقوانينكم؟ سأنقطع». أواه، كل شيء سواء لديّ!

عمياء، عمياء! ميتة لا تسمع! أنت لا تعرفين بأي جنة كنت سأحجزك. والجنة كانت في روحي، كنت سأغرزها حولك! ولكن ما كنت ستحبينني، وليكن، فما العمل؟ كل شيء سيكون عندئذ على حاله، كل شيء سيبقى على حاله. وعندئذ ستقصين لي كصديق، وسنبتهج ونضحك، وأحدنا ينظر في عيني الآخر فرحاً. ولعشنا بهذا الشكل. ولو كنت ستحبين شخصاً آخر، وليكن، وليكن. عندئذ يمكنك أن تسيري معه، ولنظرت أنا إليكما من الجانب الآخر من الشارع...

أوه، ليكن كل شيء، فقط أن تفتحي عينيك ولو مرة واحدة! لمحة واحدة، لمحة واحدة فقط! ترمقينني فيها، مثلما رمقتني قبل حين، حين كنت واقفة أمامي، وأنت تقسمين على أن تبقى زوجة وفية!

هذا هو الوضوح بعينه! فكروا في شيء واحد، وهو انها لم تترك حتى مذكـرة، كأن تقول: « لا أتهم أحداً في موتي» مثلما يترك الجميع. من غـير المعقـول أنها لم تستطـع أن تفكر في أن من المحتمـل أن يزعجوا حتى لوككيريـا. كأن يقولوا: « كنت وحدك معها، فأنت التي دفعتها إذن». ولراحـوا وجاؤوا بها، على أقـل تقدير، ولدون ذنب، لو لم ير أربعـة أشخاص من نافـذة في الملحق ومن الفناء كيـف كانت واقفة، والأيقونة في يدها، وكيف ألقت بنفسها دون تدخل أحد. ولكن ذلك أيضـاً مصادفة، أن يكون ثمة أناس واقفون، فيروا الحادث. لا، إن هذا كله برهة، مجـرد برهة فالتة. مباغتة وفنطازيا! مـاذا تعني الصلاة قدام أيقونة؟ لا يعني ذلك الشعور بدنو الموت. كل هذا لم يستمر إلا برهة، ربمـا لا أكثر مـن عشر دقائق أو نحوها، وكل شـيء قد تقرر، بالذات، حـين كانت واقفة قرب الجدار، وقد ألقت رأسها على يدها، وراحت تبتسم. خطرت فكرة في رأسها، ودارت، و لم تستطع الصمود أمامها.

هـذا التباس واضح، ولكـم أن تفكروا ما تفكـرون فيه. كان من الممكـن أن تعيش معي فترة أخرى. وماذا لـو كان ذلك فقر الدم؟ من مجـرد فقر الدم، من نفـاد الطاقة على الحياة؟ أنهكـت في الشتاء، هذا هو.....

تأخرت!!!

ما أنحفها، وهـي في التابوت، وكم تدبب أنفها! ورموشها تستقر كالسهـام. سقطـت دون أن تكسر شيئاً، ولا تحطـم شيئاً! ليس سوى تلـك «الحفنة من الدم»، يعني ملعقة متوسطـة. ارتجاج داخلي. فكرة غريبـة، ماذا لو كان في الإمكان عدم دفنهـا؟ لأنه، حين سيحملونها، عندئـذٍ...لا، من المستحيل تقريباً أن يحملوها. آه، أنا أعرف لا بد أن

عجيب جداً لماذا لم يخطر في بالي مرة واحدة، وخلال الشتاء كله، أنها تحتقرني؟ كنت على درجة عالية من الثقة بعكس ذلك، حتى لحظة إن رمقتني باندهاش صارم. وصارم بالذات. عندها أدركت في الحال أنها تحتقرني. أدركت إلى الأبد، وبلا نقض! آه، لا بأس لو احتقرتني، ولو العمر كله، ولكن كان يجب أن تعيش، أن تعيش! قبل حين كانت تمشي، وتتكلم. لا أفهم أبداً كيف رمت نفسها من النافذة! وماذا كان في وسعي أن أتصور حتى قبل خمس دقائق؟ استدعيت لوكيريا. الآن لن أترك لوكيريا مهما حدث من شيء، مهما حدث!

آه، كان في إمكاننا أن نتفاهم أيضاً. مجرد أن أحدنا فقدَ التعود على الآخر بشكل مريع، خلال الشتاء، ولكن هل كان من غير الممكن حقاً التعوّد من جديد؟ لماذا، لماذا ما كان في ميسورنا أن نجمع الشمل، ونبدأ حياة جديدة مرة أخرى؟ أنا أريحي، وهي أيضاً، وهذه نقطة التقاء! بضع كلمات أخرى ويومان لا أكثر ومن الممكن أن تفهم كل شيء.

المهم، والمغيظ أن كل هذا مصادفة بسيطة وهمجية ومبتذلة. تلك هي الإغاظة! لم أتاخر غير خمس دقائق، غير خمس دقائق. فلو جئت قبل خمس دقائق، مرّت اللحظة عابرة، مثل غيمة، ولما خطرت قط على بالها فيما بعد. ولانتهت بأن فهمت كل شيء. أما الآن، فالغرفتان خاليتان مرة أخرى، وأنا وحيد مرة أخرى. هذا بندول الساعة يدق، ولا يكترث لشيء، ولا يشفق على شيء. لا أحد هنا. ذلك هو المغيظ في الأمر!

أتمشى، وأتمشى. أنا أعرف، أعرف، ولا حاجة إلى تلقيني. يضحككم أنني أتشكى من المصادفة، ومن الدقائق الخمس؟ ولكن

أوه، من نظرة واحدة كنت ستفهمين كل شيء!

الجمود! أوه، أيتها الطبيعة! الناس وحيدون على الأرض. ذلك هو المغيـظ في الأمر. ويصـرخ العملاق الروسي «هل مـن إنسان حيّ في الميـدان؟». وأصرخ أنـا أيضاً، لا العملاق، ولا أحـد يلتفت. يقولون الشمـس تحيي الكون. وحـين تطلع الشمس انظروا إليهـا: أحقاً إنها ليسـت ميتة؟ كل شيء ميت، والأموات في كل مكان. الناس وحدهم فقط، وحولهم صمت.

تلك هـي الأرض! «أيها الناس، أحبوا بعضكم بعضـاً». من قال هـذا؟ نصيحة منْ هذه؟ البندول يدق دون مشاركة وجدانية، وبشكل مكـروه، الساعة الثانية ليلاً. وحذاؤهـا الصغير عند السرير، وكأنه في انتظارها...لا، عن جد، حين سيحملونها غداً ماذا سأكون؟

هذه قصة واحدة من كتاب
دوستويفسكي -مجموعة قصص-
الصادر عن دار المدى

الكتاب للجميع

هكـذا نريده؛ إيماناً بكونـه قيمة تحتفظ بحجمها وفاعليتها مدى العصور.

وإذ شـرعنا فعلاً بإنتاج هذه السلسلة من الكتب القيمة التي نشـرت خـلال العقود الماضية وتعذر وصولهـا إلى قارئ اليوم، فإنما نهـدف إلى إشاعة المعرفة وتيسير وسائلها وتمكين القـارئ من الوصول إلى الينابيـع الفكريـة ذات التأثير في حركة الثقافة وتاريخ الفكر، بأيسر السبل وأقل التكاليف.

ونأمل أن تكون سلسلة (الكتاب للجميع) إنجازاً فعلياً ووسيلة ميسرة تتيح للقارئ تكوين مكتبـة ذات مساحة منفتحة على مختلـف فـروع المعرفة بكلفـة لا تثقل عليه.

كل الأطراف المشاركة في هذا المشروع العربي متنازلة عن حقوقها لصالح القارئ.

الكتاب للجميع

سلسلة كتب شهرية
توزع مجاناً
مـع
السـفير

سلسلة شعبية تعيد إصدارها
مؤسسة المدى
للإعلام والثقافة والفنون